اسماعيل العرفي

التثقيف العربي الأمثل

المثقف العربي الأمثل

المثقف العربي الأمثل

إسماعيل العرفي

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ليس صحيحاً أبداً أن الأمة العربية هي الآن ، ومنذ حوالَيْ قرنَيْن من الزمن ، في عصر يقظة قومية حضارية جديدة ؛ وإنما الصحيح حقاً أنها في عصر انحطاط قومي حضاري جديد ، هو استمرار أدنى لعصور الانحطاط الماضية . ولا ينفيَنَّ من صحَّة هذا القول وسلامته ما اشتمل عليه هذان القرنان من نشاطات يقظوية جادّة أصيلة ، في مجالات الأدب والدين والفلسفة والعلم والفن والسياسية والاجتماع والاقتصاد ؛ فلقد كانت نشاطات جدّ صغيرة ، وجدّ بسيطة ، وجدّ ضيقة ، وجدّ محدودة؛ بحيث إنها لم تُؤْتِ من الثمار الطيبة المفيدة سوى

القليل والنادر ، ولم تُخلِّف من الآثار الإيجابية البنَّاءة سوى الضئيل والمتواضع .

وعلى ذلك ، فإن القول بهذه اليقظة هو ادّعاء كاذب ودعوى باطلة ، تضافرت على صنعهما من الداخل والخارج قوى التجهيل والتعمية ، والتضليل والتضبيع ، والتخريب والهدم . وإلاّ ، فأيَّة يقظة هذه اليقظة التي انتهت بهذه الأمة المجيدة إلى مثل هذا الدرك الأسفل من العطالة الذاتية والعدمية الوجودية ؟ أيَّة يقظة هذه اليقظة التي انتهت بالروح العربية إلى مثل هذا التشوّه المريع ، وبالعقل العربي الى مثل هذه الهجانة البشعة ، وبالنفس العربية إلى مثل هذا الضعف الشديد ، وبالوجدان العربي الى مثل هذا التعفّن المزري ، وبالجسد العربي الى مثل هذا التهتّك الرخيص ؟ بل أيَّة يقظة هذه اليقظة التي انتهت بالإنسان العربي إلى العبودية المطلقة ، وبالشعب العربي الى التمزّق الكلّي ، وبالوطن العربي الى الاستباحة الكاملة ، وبالدولة العربية الى الفساد الشامل،

وبالمجتمع العربي إلى السقوط التام ، وبالعروبة نفسها إلى البوار الأكبر ؟

إن اليقظة العربية الحقّة هي يقظة الذاتية العربية بكل جماعها وتمامها وكمالها ، وبكل روعتها وجلالها وعظمتها • يقظتها إنساناً وشعباً ووطناً ودولة ومجتمعاً وعروبة ، يقظتها روحاً وعقلاً ونفساً ووجداناً وجسداً ، يقظتها إيماناً وقيماً ومُثُلاً ورؤى وأخلاقاً ومبادىء وأهدافاً وغايات، يقظتها أعرافاً وعادات وتقاليدوسلوكيات، يقظتها أدباً وديناً وفلسفة وعلماً وفنّاً ، يقظتها وجوداً وحياة وصيرورة وكينونة وقدراً ومصيراً ، يقظتها ماضياً وحاضراً ومستقبلاً ، يقظتها إنسانياً وعالمياً وكونياً وإلهياً •

أما لماذا لم تكن هذه اليقظة العربية يقظة عربية حقّة، فلكونها تأسَّست منذ بدايتها الأولى على عقيدة وفكر كانا باطِلَيْن ، لأنهما كانا بعيدَيْن كلّ البعد عن العقيدة الأصلية والفكر الأصيل للأمة العربية ، وبالتالي لكَوْنها تأسَّست على ثقافة وتثقيف كانا فاسدَيْن ، لأنهما كانا

خليطاً سيّئاً من الثقافة والتثقيف الغربيّيْن الشائهَيْن ، ومن الثقافة والتثقيف السَّلَفيَّيْن الهجينَيْن . ذلك أن العقيدة الأصلية والفكر الأصيل والثقافة الرفيعة والتثقيف الجيِّد هي أساس كل يقظة حقَّة ، لأنها قوام كل حضارة حقيقيـــة .

أَجَلْ ، إن اليقظة العربية لم تكنْ قبلُ أبداً ، بل لم تبدأ بعدُ بتاتاً ، ولكنها سوف تكـــون قريباً ، وسوف تبدأ عاجلاً . أمَّا الشكل الذي ستتَّخذه هذه اليقظة ، فسيكون شكل بعث عقائدي فكري أعظم للذاتية العربية ، وأمَّا من أين سيبدأ هذا البعث ، فمن خلال ثقافة عربيـــة مثلى وتثقيف عربي أمثل .

دمشق ربيع الثاني ١٤٠٠

شـــباط ١٩٨٠

المؤلف

تَوطِـــئَة

أَمَا إن الكون الإنساني برمّته ، الإنسان والطبيعة والبشرية والعالم والحياة والحضارة ، هو الآن في مأساة وجودية تاريخية مفجعة ، فتلك حقيقة واقعيـــة مؤكّدة ، ليس من الحـــق والواجب أبداً نكرانهـــا أو تجاهلها أو إهمالها ، بل ليس من الحق والواجب أبداً إلا الإقرار بها واعتبارها مسلّمة من المسلّمات اليقينية الكبرى ، التـــي ينبغي تقبّلها بإدراك ووعي ، واحتواؤها بصدق وإخلاص وتمثّلها بعمق وشمول ، وتبنّيها بمسؤولية والتزام ، وذلك بغية إخضاعها للمعالجات الجذرية الحاسمة ، والانتهاء بها الى الحلول الإيجابية الناجعة . أمّا نكرانها أو تجاهلها أو إهمالها فضرب من العمى المطبق أو السذاجة الحمقاء أو المكابرة الصفيقة أو الغرور الكاذب ، الذي يؤدّي بها إلى

الاستفحال الشديد والتفاقم الحادّ والتضخّم المفرط ، حيث تتأبَّى على أية معالجة سليمة أو حلّ صحيح .

وهل أدلّ على مأساة الكون الإنساني من هذا الوضع اللا إنساني المهين ، الذي آل إليه هذا الكون منذ أمد ليس بالقريب ، والذي لازال يتخبط ويتردّى في حمئه المسنون ، وضع البؤس والشقاء ، والشرّ والفساد ، واليأس والقنوط ، والطغيان والعبودية ، والكفر والإلحاد، والإثم والجريمة ، والخطأ والخطيئة ، والباطل والضلال، وغير هذه كلها من العلل والآفات والأوبئة الروحيةوالنفسية والعقلية والوجدانية والجسدية الفتّاكة ؛ بل الوضع الذي بلغ من تفسّخه وانحلاله ومن تدنّيه وانحطاطه ومن عطالته وعدميته ، ما بات معه يهدّد الحياة البشريَّة بأبشع ضرب من ضروب الفناء .

وليس غريباً أبداً أن يكون الكون الإنساني برمّته في مأساة وجودية تاريخية مفجعة ، بل الغريب أن لايكون كذلك ، . ذلك أن الإنسان ، الذي هو قلب هذا الكون ،

هو نفسه الآن في أزمة ذاتية سلبية شاذّة ، تكاد أن تسلبه جميع مقوّماته وخصائصه ومزاياه الجوهرية كإنسان ، ومن ثم أن تقتلعه من كافة أصوله وجذوره وأسسه ككائن . وهو ما يعني أن المأساة الكونية العامة ليست في حقيقتها الكبرى سوى الانعكاس البرّاني الظاهر للأزمة الإنسانية الخاصة ، وذلك على اعتبار أن أزمة الانسان هي علّة مأساة الكون ، وأن مأساة الكون هي معلول أزمة الإنسان ؛ أي على اعتبار أن الانسان هو فاعل بالنسبة للكون ، وأنّ الكون هو مفعول بالنسبة للإنسان ؛ هذا ، على ما هو كائن وجودياً بين الإنسان والكون من وحدة كلية متكاملة هي وحدة المحتوى والوعاء، المحتوى وهو الإنسان ، والوعاء وهو الكون .

* * *

ولعل أبرز وجه تتجلّى فيه أزمة الانسان المعاصر هو الوجه الثقافي ، ذلك الوجه الذي يتمثّل في فقدان هذا الإنسان « ثقافيّته » الخاصة ، التي هي روح حضاريته

العامة . ونعني بثقافيَّته الخاصة ملكته الثقافية الفذّة، التي تتجسَّد في استعداده الغريزي لممارسة التعلّم والتهذيب ، وقابليَّته الطبيعية لاستيعاب معطيات الفكر والمعرفة ، ونزوعه الفطري الى استكناه الخفيّ والمجهول؛ هذه الملكة الأصلية الأصيلة ، التي بها يُتاح له تأمين مكوّنات إنسانيته الحقيقية التي تُصيِّره إنساناً حقّاً . وهي إنسانية لايتسنَّى لها أن تنبعث من حال القوة والكمون الباطنيَّيْن الى حال الفعل والتجلي الظاهريين، ولا تخرج من حيِّز السلب والنقص النسبيَّيْن الى حيِّز الإيجاب والتمام المطلَقَيْن ، إلا عن طريق التثقيف والثقافة ، اللذَيْن بواسطتهما تتحقَّق الثقافية الإنسانية، وتأخذ صيغها الإبداعية الخلاّقة .

أجَلْ ، إن أزمة الإنسان المعاصر ، ومن ثم مأساة الكون الإنساني برمَّته ، هي في خصوصيَّتها الخاصة أزمة ثقافية محضة لأنها في عموميَّتها العامة أزمة إنسانية محضة. فهذا الإنسان إذْ هو قد بات فاقداً ثقافيَّته الفذة فقد بات

فاقداً تثقيفه وثقافته الموجبيْن ، وإذْ هو قد بات فاقداً تثقيفه وثقافته الموجبَيْن ، فقد بات فاقداً مكوّنات إنسانيته الحقيقية ، وإذ هو قد بات فاقداً مكوّنات إنسانيته الحقيقية فقد بات فاقداً إنسانيته الحقّة ذاتها ؛ وبذلك فقد غدا خِلْواً من جوهره الفرد كإنسان ، ليكون بالتالي شبه إنسان ، أو بالأحرى لا إنساناً ، ذلك أن الإنسان هو عين إنسانيته دونما زيادة أو نقصان .

ويتمثّل خُلُوُّ الإنسان المعاصر من جوهره الفرد ، الذي هو إنسانيته بعامة وثقافيته بخاصة ، في خُلُوّه شبه الكلّي من روحيته الجوّانية التي هي منبع رؤاه ومُثُله وقيمه ومبادئه ومعتقداته ، التأليهية والخلقية والفكرية العليا ؛ مع اقتصاره شبه الكلّي على جسديته البرّانية التي هي مصدر رغباته وأهوائه وشهواته وميوله ومطامعه، المادية والحسية والمعيشية الدنيا . وهو خُلُوّ قد أسقطه إسقاطا مريعاً من منزلة خلافته ووكالته وسيادته الطبيعية الأصيلة ، باعتباره مخلوق السماء الأثير ، الى منزلة قناته وعبوديته وتبعيّته الوضعية المصطنعة ، باعتباره مخلوق

الأرض البائر ، وشتّان مابين المنزلتَيْن أو ما بين المخلوقَيْن . وهكذا فقد انقلبت لديه الآيتان ، آيته كإنسان ، وآية كونه ككون إنساني ، فصارت آيته الى غير ما وُجدت له أصلاً ، وأصبحت آية كونه على غير ما كانته أصالة ، فكان أن دخل هو في بُحران أزمته الذاتية السلبية الشاذّة ، ودخل الكون الإنساني في جحيم مأساته الوجودية التاريخية المفجعة ، وكان أن أمسى القدر الإنساني والمصير الكوني كلاهما رهينَي هاتَيْن الأزمة والمأساة .

وإذْ إن مسألة الإنسان والكون ، أزمةً ومأساةً ، متجوهرة كلياً في الذاتية الإنسانية ومن ثم في الذاتية الكونية ، وإذْ إن هذا التجوهر متمثّل كلّياً أيضاً في خلُوّ الذاتية الأولى ومِنْ ثمّ في خلو الذاتية الثانية ، من إنسانيتهما أو ثقافيتهما المحضة ، فإن المعالجة الجذرية الحاسمة والحلّ الإيجابي الناجع لهذه المسألة يتشخّصان في بعث إنسانية الإنسان أو ثقافيته المحضة بعثاً نشورياً مبدعاً ، ينجم عنه مولد إنسان إنساني، أو إنسان ثقافي، جديد ، يحلّ محلّ إنسان هذا العصر

المريض الذي آذن ، كعصر عالمي ، بالموت والزوال ،والذي يلفظ الآن أنفاسه التاريخية الأخيرة • وببعث هذا الإنسان الإنساني ، أو الإنسان الثقافي ، الجديد ، ينبعث الكون الانساني برمّته ، ويأخذ من جديد مساره الوجودي القويم ، ضمن عصر مستقبلي أمثل منشود •

* * *

وبديهي أن بعث إنسان كوني جديد لعصر تاريخي جديد لن يكون دفعة واحدة وفي آن واحد ، أي عبر كل إنسان في كل أمة من الأمم ؛ وإنما سيكون ، بادىء ذي بدء ، عبر إنسان معيّن في أمة معيّنة ؛ بحيث يكون هذا الإنسان المعيّن هو النموذج الأمثل الذي يُحتذى ، وتكون هذه الأمة هي المثال الأكمل الذي يُقتدى • أمّا مَنْ هو الإنسان المؤهّل بحق لأن يكون هو هذا النموذج الإنساني المُحتذى ، وأمّا مَن هي الأمة الجديرة بصدق بأن تكون هي هذا المثال القومي المُقتدى ؛ فإن كل الدلائل والأمارات تشير إشارة صريحة ، بل قاطعة ، الى أنهما هما : الإنسان العربي ، والأمة العربية ؛ وذلك بما يحملانه ،

كذاتية إنسانية كونية عظمى ، من مقوّمات وخصائص ماهوية ووجودية حيّة فريدة،تجعلهما قمينَيْن بأن يكونا نِعْمَ النموذج والمثال . فلقد توفّر لهذه الذاتية العظمى من المنزلة التاريخية الرفيعة والمكانة الحضارية السامية والمرتبة الحياتية العليا والمركز العالمي الممتاز ، ومن الطاقات والقوى والقدرات والكفاءات والمواهب الروحية والمعنوية والبشرية والطبيعية والمادية الضخمة ، ما يجعلها خالدة أبد الدهر ، تنبعث وتتجدّد عبر كل دور إنساني كوني أكبر . ولا يُسيئنّ مطلقاً إلى حقيقة خلود هذه الأمّة المتجدّد ماهي عليه الساعةَ من واقع حياتي سيّء ، لعلّه أسوأ واقع حياتي تمرّ به خلال وجودها التاريخي المديد ؛ ذلك لأن هذا الواقع ليس واقعها الذاتي المتشكّل تشكّلا طبيعياً حرّاً ، بل هو واقعها الطفيلي المفروض عليها فرضاً اصطناعياً متعسّفاً ؛ وعلى هذا ، فهو لايدلّ أبداً على حقيقتها الأصيلة ، ولا يعبّر بتاتاً عن هويتها الأصيلة ؛ الأمر الذي يجعله واقعاً سطحياً واهياً ، لا قدرة له على

الثبات والبقاء ؛ وبالتالي ، الأمر الذي يجعله قابلاً في كل حين للتقويض العاجل والانهيار السريع .

وكون الإنسان العربي هو ، كتأهيل حق ، النموذج الإنساني الأمثل لإنسان العصر الجديد ؛ وكذلك ، كون الأمة العربية هي ، كجدارة حقيقية ، المثال القومي الأكمل لأمم الطور المقبل ، يوجبان عليهما أن يضعا بعثهما المنتظر المنشود موضع الفعل والتحقّق ، حيث يبدعان رسالتهما العالمية الإنسانية الجديدة. هذه الرسالة اللاهوتية الناسوتية الفذة ، التي ستنقل الكون الإنساني برمّته ، الإنسان والطبيعة والبشرية والعالم والحياة والحضارة ، نقلة تاريخية واسعة ، تُخرجه من مدار حاضره السلبي المشؤوم، مدار الشرّ والفساد والفناء والعدم ، لتدخله في مدار مستقبله الإيجابي المسعود ، مدار الخير والصلاح والبقاء والخَلْق . وإنه لبعث قومي لابدّ من أن يكون ، وإنها لنقلة كونية لا مناص من أن تصير ؛ وذلك لكونهما ضرورة إنسانية مُلحّة ، وحُكْم إلهي محتوم ؛ وهل للحكم الإلهي

المحتوم إلا أن يجعل من الضرورة الإنسانية الملحَّة أمراً نافذ القضاء والقدر ؟

* * *

وهكذا ، فإنه من خلال التثقيف العربي الأمثل يبدأ بعث الإنسان العربي والأمة العربية والكون الإنساني من جديد ، وذلك في إطار عصر تاريخي وليد ، لعلَّه نِعْمَ العصر الإنساني الحضاري المنشود .

* * *

فما هو هذا التثقيف العربي الأمثل ، الذي تقع على كاهله مسؤولية مثل هذا البعث الإنشائي الأعظم ؟ ما هي هويته الذاتية الأصيلة التي يتميَّز بها ؟ وما هو منهجه الأصلي الحق الذي يقوم عليه ؟ وماهي مادته الأولية الأم التي يتكوَّن منها ؟ وما هي مصادره الأساسية الكبرى التي يعتمدها ؟ وما هي غائيته الجوهرية العامة التي ينشدها ؟

الفصل الأول

هويّة التثقيف العربي الأمثل

تتمثّل هوية التثقيف العربي الأمثل تمثّلاً وجوبياً موجباً في مجموعة من السّمات الذاتية الأصيلة ، التي تشخّصه وتميّزه ، والتي تجعله منذ بدايته حتى نهايته واضحاً لا لبس فيه ولا إبهام ، ومنظّماً لافوضى معه ولا ارتجال ، ومتقناً لا خلَل فيه ولا نقص ، وإيجابياً لا سلب له ولا نفي ؛ وتجعل المتثقف العربي بدوره قادراً على ممارسته ممارسة واعية رشيدة ، ، توفر عليه الوقت والجهد ، وتقيه الخطأ والزّلل ، وتجنّبه الضياع والضلال ، وتهديه الى سواء السبيل .

هذه المجموعة من السّمات هي السمات السبع التالية:

القومية ، والمعتقدية ، والذاتية ، والتربوية ، والموسوعية ، والحقيقية ، والإبداعية .

قومية التثقيف العربي الأمثل :

ليست هذه السمة هي أولى سمات التثقيف العربي الأمثل فحسب ، وإنما هي أعظمها وأهمّها وأخطرها بإطلاق ؛ لكونها السمة الأم التي تتولّد منها وترجع إليها بقية السمات الأخرى . ونعني بقومية التثقيف هنا أصالته العربية الخالصة ؛ وهي وجوب كونه تثقيفاً عروبياً محضاً في كلّيته ، أيْ في جماع معانيه ومفاهيمه ، ومضامينه ومحتوياته ، وأصوله ومبادئه ، وطوابعه ومزاياه ، وأشكاله وأنماطه ، وأساليبه وقواعده . وهو أمر يجعل من المثقف العربي متثقفاً عروبياً محضاً ، ومن الثقافة العربية المُتَحَصَّلة أو المُنْشَأة ثقافة عروبية محضة .

ولا ينبغي أبداً للتثقيف العربي الأمثل إلا أن يكون عروبياً محضاً ؛ لأنه ما لم يكن كذلك ، فإنه لن يكون أصيلا ولا حقيقياً ولا حَقّاً ، بل سيكون زائفاً ومصطنعاً وغريباً؛

لكونه سيكون مفرغاً من جوهره الذاتي الفذّ ، الذي هو العروبية المحضة نفسها ؛ وبالتالي سيكون تثقيفاً أجوف عقيماً ؛ لا جدوى منه ولا نفع فيه ولا قيمة له • وبذلك كله سيكون على عكس ما كان مُتوَخّىً منه في الأصل، وهو الخَلْق والبناء ؛ ومن ثم سيكون عبئاً كبيراً ووبالاً أكبر على الأمة العربية ، حيث سيزيد أكثر فأكثر من هجاناتها الثقافية الراهنة ، وحيث سيضاعف أضعافاً مضاعفة من عطالتها الحياتية الحاضرة •

ومما يزيد في وجوب كون التثقيف العربي الأمثل تثقيفاً عروبياً محضاً ، هو كون الوضع الثقافي والتثقيفي العام الذي يهيمن على الواقع العربي المعاصر ، وضعاً شعوبياً صرفاً في مجمله • وطبيعي أن وضعاً مثل هذا الوضع هو وضع سلبي نافٍ ؛ وبذلك فهو يقف على النقيض والضدّ من الوضع الثقافي والتثقيفي العربي الأمثل المنشود • ولا شك في أن مجابهة وضع شعوبي صرف ، لاتكون إلا بوضع عروبي صرف ؛ ولا سيما في

مثل هذه الحال العظمى ، حال البعث القومي ، والنشور التاريخي ، والخَلْق الحضاري .

ومن الخطأ الظنُّ بأن قومية التثقيف العربي الأمثل قد تُجرّده من إنسانيته المتوخّاة ، على أساس أن هناك تعارضاً طبيعياً بين القومية والإنسانية ؛ ذلك أن القومية العربية قومية حقيقية ، والقومية الحقيقية لا تكون مطلقاً إلا إنسانية حقّة ، لكونها مصوغة في جوهرها من الرؤى والمثُل والقيم والمبادىء والأهداف الانسانية السامية . وكذلك من الخطأ الظنّ بأن قوميته هذه قد تفقده عالميته الموجبة ، على أساس أن هناك تخالفاً موضوعياً بين القومية والعالمية ؛ ذلك أن القومية العربية ، بما هي قومية إنسانية ، لا مناص لها من أن تنساح في المكان انسياحها في الزمان ، حيث تأخذ أقصى أبعادها الوجودية الحيّة في العالم . وهكذا إذن ، فإن التثقيف العربي الأمثل ، إذْ هو تثقيف قومي ؛ فإنه في ذات الوقت تثقيف إنساني وعالمي معاً ؛ حيث إن قوميته هي عين إنسانيته وعالميته ، وحيث

إن إنسانيته وعالميته هما عين قوميته ، وحيث إن قوميته وإنسانيته وعالميته هي عين كونيته الكبرى •

معتقدية التثقيف العربي الأمثل :

تتمثل معتقدية التثقيف العربي الأمثل في كونه منبثقاً من صميم النظرية الإيمانية الخاصة ، التي تجعل منه الأقنوم البدئي الفرد في بعث الإنسان العربي والأمة العربية والكون الإنساني بعثاً إنسانياً حضارياً تاريخياً جديداً • فهذه المعتقدية ، بغائيتها الهادفة ، تضفي عليه طابع الانتماء الكلّي والمسؤولية العامة والالتزام الشامل ؛ ومن ثم تصيّر المثقف العربي بدوره في وضع المنتمي الذي يوقن بانتمائه التثقيفي إيقاناً قوياً ، والمسؤول الذي يدرك مسؤوليته التثقيفية إدراكاً عميقاً ، والملتزم الذي يعي التزامه التثقيفي وعياً شديداً • وهو وضع إيجابي موجب يشدّه شدّاً وثيقاً إلى تثقيفه ، حيث يمارسه ويؤدّيه بكل ما يستوجبه من محبة وتوقير ، وحيث يعيشه ويتمثّله بكل ما يستلزمه من صدق وإخلاص ، وحيث يجسّده

ويحققه بكل ما يتطلبه من تمام وكمال . ولا تقف المعتقدية التثقيفية عند حدود إضفاء طابع الانتماء والمسؤولية والالتزام على التثقيف العربي والمثقف العربي، بل إنها في الوقت ذاته تمنح الأول الحيوية والزخم والتوهج ، وتمنح الثاني القدرة والمتانة والثبات ،وتمنحهما كليهما التميز والتفرد والاستقلال .

وهكذا ، فإنه لامندوحة للتثقيف العربي الأمثل من أن يكون محمولاً حملاً كلياً على معتقديته الخاصة هذه، التي هي مبعث انتمائه ومسؤوليته والتزامه ؛ أي مبعث حيويته وزخمه وتوهجه ، وقدرته ومتانته وثباته ، وتميزه وتفرده واستقلاله ؛ وبالتالي مبعث إنشائه الإبداعي الخلاق . وهو ما لم يكن كذلك ، فإنه لن يكون سوى ضرب من ضروب التثقيف العادي العقيم ، الذي لاقيمة له ولا أهمية ؛ لأنه يكون من جهة مفرغاً من كل يقين أو حماسة ، ويكون من جهة ثانية مجرداً من أي منحىً أو مسار ، بحيث يمارسه المثقف ممارسات

سلبية غير قويمة ، أيْ ممارسات ناقصة أو فاترة أو عابثة أو جانحة أو ضالّة أو غير هذه من الممارسات المشوّهة اللاّمجدية ، التي تمارسها اليوم الكثرة الكاثرة من المتثقفين العرب ، والتي لم تُغْنِ ولن تغني شيئاً في مضمار البعث والنشـــور •

إن معتقدية التثقيف العربي الأمثل شرط أساسيّ أول من شروط نجاحه المحتَّم الأكيد • ذلك أنها تقــوم على الإيمان الإيقاني المحض ، والايمان الايقاني المحض هــو دائماً أبداً سرّ كل نجاح ، لأنه هو دائماً أبداً جوهر كلّ عمل • فأنْ نؤمن أولاً ، ثم أنْ نعمل ثانياً ، ذلك هــو القانون الأكبر لتحقيق الأهداف العظمى •

ذاتية التثقيف العربي الأمثل :

نعني بذاتية التثقيف العربي الأمثل ممارسة المتثقف العربي إياه ممارسة فردية شخصية خاصة ، لا ممارســة جماعية مجتمعية عامة ، أي ممارسته إياه بذاته وفي ذاته ومن ذاته جميعاً • ويكون ذلك باعتماده شبه الكلّي على نفسه وحدها ، واستغنائه شبه التام عن أية مساعدة أو عــون

من مجتمعه العربي الراهن الذي يعايشه • ذلك أن الوضع الشعوبي الصرف الذي يهيمن على واقع هذا المجتمع ، والذي هو وضع سلبيّ نافٍ ، ليس جديراً ألبتَّة بأن يستمدّ منه هذا المتثقف ما هو بحاجة اليه من موادّ ثقافية صالحة أو عناصر تثقيفية سليمة • فهو وضع لايكاد يشتمل إلا على المواد الثقافية الفاسدة والعناصر التثقيفية السيئة، التي تؤلف بالنسبة إليه عامل تزييف وتخريب ، وسبب تعطيل وإعاقة •

وعلى الرغم من أن المردود الثقافي الناجم عن ذاتية التثقيف العربي الأمثل ، قد يكون أقلّ اتساعاً وتنوّعاً من المردود الثقافي الناجم عن مجتمعيته ، فإن الأخذ بهذه الذاتية أجدى وأسلم ، باعتبارها تتوخّى الأصالة المحضة لهذا المردود • وإنه لأَوْلى بالمتثقف العربي أن يمارس تثقيفه ممارسة ذاتية قويمة وأن يحوز من خلالها على مردود ثقافي مقنَّن محدود ولكنه أصيل ، من أن يمارسه ممارسة مجتمعية مفسودة وأن يحوز من خلالها على مردود ثقافي

واسع كبير ولكنه هجين • فالعبرة هنا ليست في كميّة المردود بل في نوعيّته ؛ ذلك لأن الغاية المتوخّاة من التثقيف العربي الأمثل هي خَلْق مثقف عروبي بنّاء ، لا اصطناع مثقف شعوبي هدّام •

وإنه لما كان التثقيف العربي الأمثل تثقيفاً ذاتياً محضاً يعتمد فيه المتثقف العربي على نفسه وحدها دون انتظار لأية مساعدة أو عون من مجتمعه العربي الراهن ، كان على هذا المتثقف أن يبذل في سبيله من الجهد والوقت أكثر مما يلزم ؛ وذلك كتعويض عما كان ينبغي لهذا المجتمع أن يقدّمه له من مساعدة وعون ، لو أنه كان في وضع ثقافي تثقيفي سليم • وهما جهد ووقت يبلغان أضعاف مايبذله غيره من متثقفي المجتمعات الاخرى السليمة ، الذين توفّر لهم مجتمعاتهم من التسهيلات الوفيرة ما يجعلهم لايبذلون في سبيل تثقيفهم المتوخّى سوى الضروري ، بل الضروري جداً ، من الجهد والوقت • فعلى المتثقف العربي ، مثلاً ، أن يبذل الكثير من الجهد والوقت في البحث عما يحتاج إليه من الكتب القيّمة ، والكثير من الجهد والوقت في

اتنقاء ما يلزمه من الموضوعات الجيّدة ، والكثير من الجهد والوقت في اختيار ما يناسبه من البرامج القويمة ، والكثير من الجهد والوقت في تحديد ما يلائمه من الأساليب الصحيحة ، وهكذا ؛ الأمر الذي يجعله ينوء بحق تحت وطأة هذه الجهود والأوقات المبذولة ، أياً ما بلغ من القدرة الذاتية العالية •

تربوية التثقيف العربي الامثل :

تتمثّل تربوية التثقيف العربي الأمثل في خروجه من مجال خصوصيته التثقيفية الضيقة باعتباره جزءاً من التربية ، إلى مجال عموميته التربوية الواسعة باعتباره بديلاً مكلّفاً عنها • وذلك بأن يأخذ شكل تربية عامة تتناول شخصية المتثقف العربي بجميع جوانبها وأبعادها ومستوياتها ، لا شكل تثقيف خاص يقتصر على بعض هذه الجوانب والأبعاد والمستويات لا غير ؛ بحيث يحلّ الجزء ، الذي هو التثقيف ، محل الكلّ ، الذي هو التربية؛ وذلك بدافع من الضرورة الغائية القصوى •

وحلول التثقيف محلّ التربية ناجم في أصله عن غياب المؤسسات التربوية العربية الكبرى في المجتمع العربي الراهن ، البيت والمدرسة والمعهد والجامعة والمنتدى ، وما يماثلها من الهيئات والجمعيات والمنظمات الاجتماعية ذوات الصبغة التربوية العامة والخاصة ، هذا الغياب الذي يتجلى في فسادها فساداً كبيراً ، دفع بها الى التخلّي شبه الكامل عن دورها التربوي الخطير • وهو غياب يوجب على المثقف العربي أن يجعل تربيته تربية ذاتية محضة ، ومن ثم أن يمارسها ممارسة تثقيفية محضة ، بحيث يكون التثقيف هو التربية ولكن على محمل التعميم ، وتكون التربية هي التثقيف ولكن على محمل التخصيص •

وخروج التثقيف العربي الأمثل من مجال خصوصيته التثقيفية الضيقة الى مجال عموميته التربوية الواسعة ، يزيد كثيراً في أعباء المثقف العربي ومهامّه الأساسية ، ويوسع جداً من مسؤولياته والتزاماته الرئيسية ، وبالتالي يضاعف عموماً من جهوده الذاتية الكبرى ، ذلك لأنه يزيد

ويوسِّع ويضاعف من ميادين وآفاق وضروب ثقافته • الأمر الذي يجعل عملية هذا التثقيف عملية شاقَّة عسيرة، تتطلَّب استنفار جميع مالديه من قدرات وطاقات وقوى روحية ونفسية وعقلية ووجدانية رفيعة • فأنْ يتثقف الإنسان تثقيفاً معرفياً شيء ، وأن يتثقف تثقيفاً تربوياً شيء آخر يتميَّز عنه كثيراً ، لا في الكمية والنوعية فحسب، بل أيضاً في الدرجة والمستوى •

وفي الحق ، فإن تثقيفاً عربياً يتوخَّى بعث الذاتية العربية بعثاً كلياً تاماً متكاملاً ، لايمكنه أبداً إلا أن يكون تثقيفاً تربوياً بإطلاق ؛ لأنه لايمكنه أبداً إلا أن يكون مكافئاً لهذه الذاتية مكافأة شمولية موجبة •

موسوعية التثقيف العربي الأمثل :

إن التثقيف العربي الامثل ، إذْ هو تثقيف تربوي عام يتناول شخصية المتثقف العربي بكليَّتها ، فإن هذا يجعله بالضرورة والحتم تثقيفاً موسوعياً جامعاً ، يضمّ إليه ضروب الثقافة الإنسانية : الأدبية والدينية والفلسفية والعلمية

والفنية ، على اختلاف فروعها • ذلك أن شخصية الكائن الإنساني هي ، على الرغم من وحدتها التامة ، شخصية متعددة الجوانب ، جوانب الروح والنفس والقلب والعقل والضمير والجسد • وإن تفتّح هذه الجوانب تفتّحاً تعادلياً مُتّسقا ، وتطوّرها تطوّراً توازنياً متكاملاً ، يتطلّبان تزويدها بكل تلك الضروب الإنسانية ، مجتمعةً ومتّحدةً ومتفاعلة ؛ وذلك من خلال تزويد كل منها بضربه الثقافي الخاص •

والمثقف العربي ، إذْ يتعاطى ضروب الثقافة الإنسانية ، فإنه لايمكنه أن يتعاطاها بروح العالم المتخصّص الذي يتناول كل ضرب من هذه الضروب بشكله الجزئي التفصيلي الموسَّع ، وإنما بروح المفكر الجامع الذي يتناولها جميعها بشكلها الكلّي العمومي المقنَّن ؛ ذلك أن هدفه الجوهري هنا ليس أن يحصل على معرفة علمية مجرّدة ، بل أن يمتلك معرفة حياتية مشخّصة • هذا ، عدا عن أن تعاطي ضروب هذه الثقافة الإنسانية بروح

علمية اختصاصية مدققة أمر" هو قطعاً في حكم المستحيل على أيّ متثقف كان ؛ ولاسيما في مثل هذا العصر الذي بلغت فيه المعرفة الكونية من التعدّد والتنوّع ومن التفرّع والتشعّب ومن التكدّس والتراكم ومن التضخّم والاتّساع ، ما لا يتسنّى معه إدراكُ إلا القليل المصطفى منها •

غير أن المتثقف العربي ، إذا كان ملزماً بأن يجعل موسوعيته التثقيفية متّسمة بمزايا الكليّة والعمومية والشمولية ، فإنه ملزم في ذات الوقت بأن يجعلها متّسمة أيضاً بمزايا العمق والدقة والإحكام ؛ هذه المزايا التي تمنحها طابعها الأصلي الحق ، طابع الإنشاء والإبداع والخَلْق •

حقيقية التثقيف العربي الأمثل :

تقوم حقيقية التثقيف العربي الأمثل على وجوب كونه تثقيفاً حقيقياً ، أي على وجوب كونه تثقيفاً مثالياً وواقعياً معاً وسواء بسواء • ذلك أن الحقيقة لا تكون نتاج الفكر

المثالي الخالص لوحده فقط ، كما لاتكون نتاج الفكر الواقعي الخالص لوحده لا غير ، وإنما تكون نتاج هذيْن الفكرَيْن مجتمعَيْن ومتَّحديْن ومتفاعلَيْن ومتوالديْن. فالفكر المثالي بدون الفكر الواقعي هو فكر نظري تأمّلي مجرّد ، وبالتالي هو فكر قيد القوة التصوّرية الكمونيّة المتجوهرة ؛ والفكر الواقعي بدون الفكر المثالي هو فكر عملي حياتي مُعاش ، وبالتالي هو فكر قيد الفعل التجسّدي الحضوري المُشيَّأ ؛ وليس للفكر النظري التأملي المجرّد أن يكون حقيقياً إلا إذا حايث الواقع وتحوّل فيه الى فعل وجوديّ حيّ ، وكذلك ليس للفكر العملي الحياتي المُعاش أن يكون حقيقياً إلا إذا تعالى إلى المثال وتحوّل فيه الى جوهر ذاتي محض ؛ فعن طريق المحايثة والتعالي تكون المثالية واقعية والواقعية مثالية ، ولا خلاف . وهذه هي الحقيقية في مفهومها الأصلي الحق .

إن الحقيقية ، إذن ، التي ينبغي للمتثقف العربي أن يأخذ بها في تثقيفه العربي الأمثل ، هي هذه الحقيقية الكلية

الجامعة ، حقيقة الفكر الثقافي في مثاليته الواقعية وواقعيته المثالية • وهي حقيقة توجب عليه أن يعرف جيداً كيف يقابل ويقارن ، وكيف يعادل ويوازن ، وكيف يزاوج ويمازج ، بشكل إيجابي خلاّق ، بين نوعي فكره الثقافي ، المثالي والواقعي ، بحيث لا يُغلّب نوعاً على نوع ، فلا يُغلّب المثالية الخالصة فيقع في الخيالية التي تصلبه إلى عالم الوهم والضلال ، أو يُغلّب الواقعية الخالصة فيقع في المستنقعية التي تغوص به في عالم السطحية والتفاهة ، الأمر الذي يُفقده حقيقيّته الإيجابية الخلاّقة ، التي هي منبع أكبر من منابع إبداعه •

والمثقف العربي ، إذْ يجمع في تثقيفه العربي الأمثل بين ثقافتَيْه المثالية والواقعية ليؤلف منهما ثقافته الحقيقية الفذة ، فلأن بعثه الفردي والقومي والكوني لا يكون إلا عن طريق تثقيف حقيقي فذّ ، يتغذّى تغذية جوّانية وبرّانية بذلك المزيج الثقافي الأمثل ، المصوغ من الرؤى والقيم والمبادىء والأخلاق والمعارف المثالية الرائعة التي

هي وليدة الملأ الأعلى والغد الأفضل المأمول ، ومن الحوادث، والأحداث ولأفعال والأعمال الواقعية الهامّة التي هي حصيلة الملأ الأدنى والحاضر الوضعي القائم . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن التثقيف العربي الأمثل نفسه هو حقيقة جوهرية كبرى ، باعتباره حقيقة بعث ونشور حتميتين،والحقائق الجوهرية الكبرى لاتكون كذلك إلا إذا كانت مشتملة اشتمالاً توحيدياً حياً على المثال في أسمى عناصره ، والواقع في أغنى موادّه ، وذلك دونما تمايز أصلي بينهما .

إبداعية التثقيف العربي الأمثل :

التثقيف العربي الأمثل هو ، في جوهره ، تثقيفُ بعث قومي إنساني كوني أعظم جديد . وتثقيف البعث القومي الإنساني الكوني الأعظم الجديد لا يكون إلا تثقيفاً إبداعياً بإطلاق ، نسيجُه الإحياءُ والخلْق والإنشاء ، لأنه لايكون إلا تثقيفاً أصلياً أصيلاً بإطلاق ،

حيث إن الأصلية والأصالة هما القوام الأول لكل إبداعية ثقافية رفيعة •

وكون التثقيف العربي الأمثل تثقيفاً إبداعياً بإطلاق، يوجب على المتثقف العربي بدوره أن يكون متثقفاً مبدعاً بإطلاق • والمتثقف المبدع بإطلاق هو المتثقف المبتكر ثقافياً، أي المتثقف الذي ينشىء عبر تثقيفه العربي الأمثل فكراً ثقافياً جديداً، يكون مشتملاً على كل ما ينبغي للفكر الثقافي العربي المستقبلي المنشود أن يشتمل عليه من مقومات وخصائص ومزايا ذاتية أصيلة ، سواء أكان هذا الفكر أدبياً أم دينياً أم فلسفياً أم علمياً أم فنّياً •

ولا يتاح للمتثقف العربي أن ينشىء فكراً ثقافياً جديداً إلا لدى بلوغه ذلك المستوى التثقيفي الرفيع ، الذي يحوز فيه على ثقافة قومية إنسانية عالمية ممتازة ، يغدو معها مؤهلاً بالفعل لابتكار مثل هذا الفكر الثقافي الجديد • ذلك لأن الابتكار لا يكون إلا وليد

المستويات التثقيفية الرفيعة ، لا وليد المستويات التثقيفية المتوسطة أو العادية •

* * *

إن هوية التثقيف العربي الأمثل هذه ، بسماتها الذاتية السبع ، القومية والمعتقدية والذاتية والتربوية والموسوعية والحقيقية والإبداعية ، هي الهوية التي يتوجَّب على المتثقف العربي أن يضعها نصب عينيه بكل جلاء ووضوح وأن يتوخى تحقيقها بكل عناية واهتمام ، وذلك لدى ممارسته منهجه التثقيفي الخاص • وهي هوية تجعل هذا التثقيف متميِّزاً تميُّزاً شديداً عن غيره من ضروب التثقيف الأخرى ، العربية منها والأجنبية على السواء •

الفصل الثاني

منهج التثقيف العربي الأمثل

للتثقيف العربي الأمثل منهج ذاتي خاص ، له مبادئه وأصوله وقواعده وأساليبه ووسائله الوضعية الملائمة، التي يأخذ بها ويسير حسبها ويتوخّى تطبيقها. وهو منهج ينبثق انبثاقاً أصيلاً من طبيعته الأصلية كأقنوم فذ في البعث العربي الإنساني الكوني الجديد . ويتمثّل هذا المنهج تمثلاً كلياً في المطالعة العربية المثلى ، بجماع ما تشتمل عليه من مقوّمات وخصائص وصفات كبرى .

وتقوم المطالعة العربية المثلى على ركنَيْن أساسيَّيْن وحيدَيْن هما : اصطفاء كتب التثقيف اصطفاء ممتازاً ، وقراءة هذه الكتب قراءة جيدة . ويتساوى هذان الركنان

تساوياً تعادلياً تاماً في الأهمية والقيمة ؛ بحيث إنه لا أهمية ولا قيمة ألبتّة لأحدهما دون الآخر . فأية أهمية أو قيمة لكتاب ممتاز يُقرأ قراءة سيِّئــة ؟ وكذلك أية أهمية أو قيمة ، بالمقابل ، لقراءة جيدة يُقرأ بها كتاب سيّء ؟ إنــه لا أهمية ولا قيمة لهما كليهما على السواء ؛ فالكتاب الممتاز لا بدّ له من قراءة جيدة وإلا ذهب امتيازه ؛ والقراءة الجيدة لابد لها من كتاب ممتاز وإلا ذهبت جودتها ؛ وهو أمــر يجعلهما يؤلفان فيما بينهما وحدة تثقيفية واحدة متكاملة، لا يمكن أبداً لأحد قسميْها أن ينفصل عن الآخر .

اصطفاء كتب التثقيف :

لقد بلغت الثقافة الإنســانية اليوم مــن الاتّساع والشمول ومن التنوّع والتشعّب ما يكاد يجعلها عصيّة جداً على أيّ امتلاك حقيقي كلّي عام ، بل ما يكاد يجعلها عصيّة جداً على أيّ امتلاك حقيقي جزئي خاص ، الأمر الذي يثير لدى المتثقف مشاعر الضعف والعجز والقصور تجاهها ، ويبتعث فيه عوامل الحيرة والقلق والاضطراب

أمامها ؛ بحيث يغدو ، والحال هذه رهين ضياع ثقافي كبير، يفقد معه كل قدرة على ممارسة أي تثقيف إنشائي أصيل. ومن هنا ، فقد كان على المتثقف العربي ، كيما يتجاوز مثل الضياع الكبير ، أن يعرف جيداً كيف ينبغي له أن يتعامل مع تلك الثقافة الإنسانية ، ومن ثم كيف ينبغي له أن يصطفي منها بشكل أمثل خير ما تشتمل عليه من كتب التثقيف .

ولا شك في أن ممارسة مثل هذا الاصطفاء الكتبي الأمثل ليس بالأمر اليسير الهيّن ، بل إنه عسير وصعب الى درجة كبيرة جداً ؛ حتى إن تحقيقه بتمامه وكماله يكاد يكون مستحيلاً ، اللّهم إلا في صورة ما من الصور الخصوصية المقنّنة . وذلك بسبب ما يحيط به من مزالق خطرة ، كالتخبط والفوضى والجنوح والضلال وغيرها ؛ هذه المزالق التي تتأتّى في مجملها من ضخامة عدد الكتب التي يتوجّب على المتثقف العربي أن يصطفي من بينها كتبه التثقيفية الخاصة المحدودة ، والتي هي خليط متنافر

يجمع بين الأصيل والهجين ، والحقيقي والزائف ، والسمين والغثّ ، والطيّب والخبيث ، والمفيد والضارّ ، والسليم والسّقيم،والجميل والقبيح،والناضج والفج،والحيّ والميت ، وغيرها . ولكن تلك الصعوبة وذلك العسر يهونان كثيراً عندما يتخذ المثقف العربي لنفسه مقياساً تقييمياً ملائماً يستهدي به في تحقيق اصطفائه الكتبي الأمثل .

وهكذا ، فإنه لايجوز إطلاقاً للمثقف العربي أن يمارس اصطفاءه الكتبي تلك الممارسة العفوية البسيطة ، التي لن توصله إلى أية نتائج إيجابية بنّاءة ؛ وإنما يجب عليه أن يمارسه تلك الممارسة المنهجية المدروسة التي تتيح له تكوين مكتبته التثقيفية الخاصة ، التي تشتمل على أمّهات الكتب العالمية المختارة ، التي لا غنى عنها أبداً في تحقيق تثقيفه العربي الأمثل . هذه الكتب التي ينبغي أن تجمع جمعاً مزجياً متناسقاً بين روعة المحتوى وعظمة الشكل ، أي بين روعة ما تتضمّنه جوّانياً من فكر ومعرفة ، وعظمة ما تُصاغ به برّانياً من لغة وأسلوب . ذلك أن الكتب الممتازة هي ما كانت ممتازة في أيّ عنصر

من عناصرها الأساسية الكبرى ، سواء أكان نوع هـذه الكتـب ، أدبياً أم دينيـاً أم فلسفياً أم علمياً أم فنياً أم سوى ذلك •

وفي الحق ، فإن المطالعة العربية المثلى من دون اصطفاء كتبي أمثل هي مطالعة محكوم عليها سلفاً بالعقم واللاّجدوى الشديدَيْن ، لأنها تكونُ مطالعة قد فقدت مادّتها الثقافية المنشودة ، وبالتالي فقدت صفاتها الثقافية الأصيلة التي تجعل منها مطالعة إبداعية خلاّقة •

قراءة كتب التثقيف :

لقراءة الكتب أساليب عديدة متنوعة تتمايز تمايزاً كلياً أو جزئياً فيما بينها في الجودة والسوء • وهي أساليب تنبثق انبثاقاً حتمياً لازماً من الأغراض الأساسية المتوخّاة لهذه القراءة • وإذْ إن من هذه الأغراض ما هو للتنوّر والاطلاع ، أو للتعلّم والتحصيل ، أو للتأهيل والإعداد ، أو للهواية والاستمتاع ، أو للتسلية وتزجية الفراغ ، أو غير هذه من الأغراض ؛ فإن من هذه الأساليب أيضاً ما هو

هادىء أو متأنٍّ أو متعمِّق أو مركَّز أو حيوي من جهة، وما هو مضطرب أو سريع أو سطحي أو مشتَّت أو آلي من جهة ثانية ، بحيث إن لكل غرض أسلوبه القرائي الخاص ، الذي يتناسب وطبيعة هذا الغرض الأصلية • ولما كان الغرض الجوهري المتوخَّى للتثقيف العربي الأمثل هو البعث والنشور ، بعث الإنسان العربي ونشور الأمة العربية ، كان من البديهي أن تكون له قراءته الكتبية الخاصة التي تتناسب في أسلوبها الأمثل مع ما لهذا الغرض الفذّ من قداسة وعظمة وجلال •

وتتميَّز القراءة الكتبية الخاصة للتثقيف العربي الأمثل في كونها قراءة إنشائية رفيعة ، بل رفيعة جداً • فهي تقوم ، عموماً ، على التفهُّم الدقيق والاستيعاب الجيِّد والتمثُّل الصحيح والاغتذاء السليم بكل ما يُقرأ ، بحيث تأخذ شكل احتواء ثقافي مبدع،وتقوم بالمقابل على العناية الشديدة والتمهل الواعي والتمعن البصيروالتأمل الملي في كل مايُقرأ ، بحيث تتخذ صورة فعل فنيّ جميل • الأمر

الذي يتطلب من المتثقف العربي أن يُعمل في هذه القراءة كل جوارحه وملكاته وهي في أرهف أحوالها ، وبالتالي أن يُعمل فيها كل قواه وقدراته وهي في أعلى مستوياتها .

ولا يحقّ أبداً أن تُمارس قراءة كتب التثقيف العربي الأمثل إلا بمثل هذا الأسلوب الفكري الفنّي الرفيع ، لا بأي أسلوب آخر غيره بتاتاً ؛ وذلك انسجاما منها مع المتثقف العربي والكتاب العربي على السواء . وهي ما لم تُمارَس هكذا ، فإنها ستكون قراءة فاسدة ، لأنها ستكون سلبيَّة باطلة ، ومن ثم لا مجدية فاشلة . أما سلبيَّتها وبطلانها ، فإنهما يتأتّيان من كونها ستجرّد الكتاب العربي من كل ما يشتمل عليه من قيمة ثقافية ؛ وأما لاجدواها وفشلها ، فإنهما يتأتّيان من كونها ستُفقد المتثقف العربي فائدته الثقافية المنشودة .

وإذْ إن القراءة الكتبية على مثل هذه الخطورة الكبيرة بالنسبة للمطالعة العربية المثلى ، وبالتالي بالنسبة للتثقيف العربي الأمثل ، كان على المتثقف العربي أن يزيد

دائماً وأبداً في عنايته العظمى بتحسينها وتجويدها ، بحيث يصل بها أخيراً الى درجة الترتيل الباطني ، التي هي أسمى درجة من درجات القراءة التثقيفية المثلى ، لكونها الدرجة التي يتَّحد فيها القارىء العربي والكتاب العربي اتّحاداً تفاعلياً انسجامياً تاماً •

* * *

وإن تحقيق مطالعة عربية مثلى ، باصطفاء كتبي ممتاز وقراءة كتبية رفيعة ، يقتضي من المتثقف العربي مجاهدة ذاتية شاملة ومعاناة حياتية عالية ، ومن ثم يقتضي منه توفير عنصرَيْن أساسيَّيْن اثنَيْن هما : الوقت المديد ، والجهد العظيم •

الوقت المديد :

أياً ما كانت مكتبة المتثقف العربي الخاصة ذات حجم مقنّن محدود ، فإن عدد ما تشتمل عليه من كتب تثقيفية مصطفاة يبقى كبيراً جداً ، بحيث إن قراءته إياها قراءة

مثلي تتطلب منه زمناً مديداً ، لايكاد يتناسب أبداً مع عمره الإنساني القصير ذي السنين المعدودة • ومن هنا ، كان عليه أن يُجهد نفسه كثيراً من أجل أن يوفّر ، عبر هذا العمر القصير ، الوقت الكافي لإنجاز قراءة كل تلك الكتب أو غالبيتها أو القسم الأعظم منها • وسبيله القويم إلى توفير مثل هذا الوقت الكافي هو التنظيم الزمني الدقيق ، الذي يتيح له التحكّم تحكّماً إيجابياً متقناً بوقته الحياتي الكلّي العام ، ومن ثم بوقته التثقيفي الجزئي الخاص •

أما تحكّمه بوقته الحياتي الكلّي العام ، فإنه يتمّ من خلال ما يمارسه من إعداد وتنسيق وترتيب لجميع شؤونه وأعماله وعلاقاته المجتمعية المختلفة ، العمومية منها والخصوصية على السواء ، حيث يجرّدها من كافة استطالاتها الزائدة غير المهمّة ، وتفرّعاتها الطفيلية غير المفيدة ، وحيث يشذّبها ويكثّفها ويركّزها بصورة توجيهية هادفة ، وبذلك يتسنّى له أن يوفّر الكثير من

الزمن المهدور دون جدوى ، وأن يحوّله تحويلاً إيجابياً بنّاءً لحساب المطالعة والتثقيف . وأما تحكّمه بوقته التثقيفي الجزئي الخاص ، فإنه يتمّ من خلال ما يمارسه كذلك من إعداد وتنسيق وترتيب لساعاته اليومية المقنّنة، التي يكون قد كرّسها لقراءاته الكتبية اللازمة ، حيث يقوم بتحديدها بدقة ، والتقيّد بها بصرامة ، وبذلك يتاح له أن يستوفي هذه الساعات الثمينة بأجمعها وفي ميدانها المخصّص لها ، دونما أي تبديد أو تضييع أو فقدان لأية ساعة منها .

وهكذا ، فإن تنظيم المثقف العربي لوقته الحياتي الكلي العام ، ومن ثم لوقته التثقيفي الجزئي الخاص ، هو وحده الكفيل بأن يحقّق له قراءات كتبية منتظمة ، لأنه هو وحده الكفيل بأن يوفّر له أوقاتاً قرائية كافية ، ولا سيما في مثل هذه العهود العربية والعالمية الراهنة الشاذّة، التي أثقلت كاهل الإنسان العربي بمشاغل يومية كثيرة ، كادت أن تملأ عليه كل وقته ، وبالتالي كادت أن تصرفه

تماماً عن ممارسة أي شكل من أشكال المطالعة ، بَلْهَ المطالعة العربية المثلى ؛ الأمر الذي يجعله في سباق مرير مع الزمن ؛ وهو سباق لن يُكتب له فيه الفوز إلا إذا أدرك جيّداً قيمة وقته ، فقدّره حقّ قدره ، إعداداً وتنسيقاً وترتيباً ، وحمّله أكبر الجهود والطاقات ، وعبّأه بمختلف المنجزات الإنشائية الواجبة ، وعلى رأسها منجزات الثقافة والتثقيف ؛ هذه المنجزات التي ، إنْ كانت تتطلّب وقتاً منظّماً جداً فإنها أيضاً تتطلب وقتاً مديداً جداً ؛ وهو وقت لا بدّ له من أن يكون قائماً على الاستمرارية المتصلة والديمومة المتواصلة ، اللتَيْن قد تنسحبان على العمر الانساني بكامله .

وفي الحق ، فإن الوقت المنظّم يفقد قيمته التنظيمية ما لم يكن مديداً ، والوقت المديد يفقد بدوره قيمته المديدية ما لم يكن مستمراً متصلاً ودائماً متواصلاً . ومن هنا ، فإن الوقت في المطالعة العربية المثلى ، لكي يكون وقتاً تثقيفياً منتجاً ، ينبغي له أن يكون وقتاً مديداً ومنظّما

ومستمراً ومتصلاً ودائماً ومتواصلاً معاً ؛ أي أن يكون سيَّالة زمنية متوالية ؛ لا تقطُّع فيها ولا انقطاع .

الجهد العظيم :

إن التثقيف العربي الأمثل ، متمثّلاً في المطالعة العربية المثلى ، عملية صعبة وشاقة جداً ؛ ولا مجال لتحقيقها بكل كمالها المنشود إلا بأن يبذل المتثقف العربي في سبيلها جهداً إنسانياً عظيماً ، تتضافر على صنعه جماع قواه الروحية والنفسية والعقلية والقلبية والجسدية المختلفة ؛ وهو جهد يتَّسم ، كضرورة ووجوب، بسِمتَي الضخامة والديمومة. فتأمين الاصطفاء الكتبي الممتاز ، وتحقيق القراءة الكتبية الرفيعة ، وإنجاز التنظيم الزمني الدقيق ، كل منها هو في حدّ ذاته عمل ضخم دائم ، يستلزم بذل ضرب من الجهد الجزئي الخاص ، الذي يؤلف مع غيره جهداً كلياً عاماً ، هو الجهد التثقيفي العظيم .

وإذا كان المتثقف العربي يلقى الأمرّ في توفير الزمن الكافي لتثقيفه العربي الأمثل ، فإنه في نفس الوقت يلقى الأمَرَّيْن في توفير الجهد اللازم له . فهذه

الأوضاع السَّلبية الشاذة ، العامة منها والخاصة ، التي يعيشها لا تتيحُ له أبداً أن يتصرَّفَ في جهده الذاتي كما يشاء . فهي تكاد أن تستنزف كل قواه وطاقاته الكبرى ، تشتيتاً أو تبديداً أو تجميداً أو تضييعاً أو ما ماثل ذلك ، بحيث يتوجَّب عليه أن يعمل ما في وسعه للاحتفاظ بشيء ما من هذه القوى والطاقات التي هي قيد العدم ، وتحويلها من ثم الى جهد تثقيفي فعَّال ، وهكذا فإنه يبذل بدلاً من الجهد الواحد جهدَيْن اثنَيْن ، جهداً لتوفير الجهد ، وجهداً لاستثمار هذا الجهد .

وإيمان المتثقف العربي بتثقيفه العربي الأمثل ، يجعله يُحلّ هذا التثقيف المحلّ الأسمى من نفسه ، ومن ثم يجعله يبوّئه المكانة الأرفع من جميع نشاطاته الحياتية المختلفة ، بحيث لا يمكنه أن يضنّ عليه ببذل أعظم الجهود وأثمنها . ذلك لأن هذه الجهود المبذولة إنما هي في سبيل تحقيق هدف لا أروع منه ، وتجسيد غاية لا أجلّ منها ، وهل هناك ما هو أروع أو أجلّ من تثقيف يحمل مسؤولية بعث إنسان بكل إنسانيته الحقة ، ونشر أمة بكل حضاريتها

الحقيقية ، وتشييد عالم بكل كونيته الأصيلة ؟

أجل ، إن إيمان المتثقف العربي بتثقيفه العربي الأمثل ، يجعله قادراً قدرة عظيمة على تخطّي كافة الأوضاع والأحوال والظروف السلبية الشاذة التي يعيشها ، والتي تكاد تشلّه وتحول بينه وبين توفير ذلك الجهد العظيم ، الذي يتطلّبه هذا التثقيف الذي يبدو من خلال هذه الأوضاع والأحوال والظروف وكأنما هو مستحيل أو مُعجز ؛ ذلك أنه بالإيمان ، الإيمان الراسخ المكين ، يتحقّق كل مستحيل مُعجز ، ويُصاغ كل مُعجز مستحيل .

* * *

وبديهي جداً أن يكون التثقيف العربي الأمثل مقتصراً ، في مجمله ، على الكتب فقط دون سواها من وسائل التثقيف الأخرى ، كالصحف والمجلات وأشباهها ؛ حيث إن طبيعة هذا التثقيف تفترض ذلك وتوجبه . فهو تثقيف إنشائي خاص ، يتوخّى في جوهره امتلاك المعرفة الإنسانية الحقة امتلاكاً إبداعياً خلاّقاً يستهدف البعث

والنشور ، هذه المعرفة التي لا يمكن أن توجد إلا في الكتب ، وفي الكتب وحدها • فالكتاب ، بسبب من طبيعته الذاتية الفذة ، مؤهَّل لأن يحمل أعظم ضروب المعارف في أروع ضروب الصور ، على حين أن الصحيفة أو المجلة، بسبب من قصورها الذاتي ، عاجزة عن ذلك مهما بلغت من الغنى الثقافي • فهي غير قادرة إلا على حمل خليط محدود جداً من المعارف القليلة أو البسيطة أو الجزئية أو الناقصة أو العامة ، التي قد يمكنها اصطناع مثقف عادي ، ولكنها قطعاً لا يمكنها صياغة مثقف ممتاز كما هو شأن الكتب •

هذا بالنسبة للصحيفة أو المجلة بصورة عامة وفي أسلم أشكالها وأرفع مستوياتها • أما بالنسبة للصحيفة أو المجلة العربية ، فإنها ، بسبب من وضعها الراهن غير السويّ ، أعجز من أن تحمل أية مادة معرفية ثمينة ، وبالتالي أعجز من أن تصطنع غير المثقف التافه الهزيل الذي يضرّ أكثر مما يفيد • ومن هنا كان لزاماً على المثقف العربي عدم اعتمادها وسيلة أساسية من وسائل تثقيفه العربي

الأمثل . بيد أن عدم اعتماده إياها لايعني وجوب انصرافه عنها انصرافاً كلياً واستغنائه عنها استغناء تاماً ، وإنما يعني وجوب تعامله معها تعاملاً اصطفائياً جدّ مقنّن ، أي جدّ دقيق وجدّ ضيّق وجدّ محدّد ، بحيث يجعل منها وسيلة ثانوية لاحقة ، تكون تابعة ومتمّمة للوسيلة الأصلية الأولى التي هي الكتب .

إن على المثقف العربي ، إذن ، أن يتعالى في تثقيفه العربي الأمثل عن مستوى الصحف والمجلات وأشباهها ، وأن لا يقع فيما وقع فيه غيره من مثقفي المجتمعات الأخرى ، أو من مثقفي مجتمعه العربي الراهن ، الذين استعاضوا عن الكتاب بالمجلة والصحيفة ، وجعلوا منهما زادهم الثقافي الأصلي الأول الذي يتغذّون به كلياً ، فكان أن أصبحوا ، في خير أحوالهم ، أشباه أو أنصاف مثقفين لا غير ، ذلك لأنهم ، إذْ انصرفوا عن الكتاب ، انصرفوا عن ذلك المكوّن الثقافي الأمثل ، الذي هو وحده الخليق بأن يصوغ منهم مثقفين حقيقيّين أصلاء .

* * *

هذه هي المطالعة العربية المثلى ، الممثّلة لمنهج التثقيف العربي الأمثل ، باصطفائها الكتبي الممتاز ، وقراءتها الكتبية الرفيعة ، ووقتها الطويل المديد ، وجهدها الكبير العظيم • وإنها ، لفي الحق ، مطالعة ضخمة وهامّة وخطيرة من ناحية ، وصعبة وشاقّة ومضنية من ناحية ثانية ، وفذّة وطليعية ورائدة من ناحية ثالثة • وإذْ هي كل أولئك ، فإنه لا مناص للمتثقف العربي ، كيما يحققها على خير وجه، من أن يكون في وضع جهادي أمثل ، هو وضع الجهاد الجوّاني الأكبر ، ووضع الجهاد البرّاني الأصغر ، معاً وسواءً بسواء •

وطبيعي جداً أن ممارسة هذه المطالعة العربية المثلى بنجاح كبير سوف يقتصر ، باديء ذي بدء ، على فئة خاصة من المتثقفين الطليعيين الأفذاذ ، ذوي المؤهلات والكفاءات

والقدرات والطاقات الروحية والنفسية والعقلية والوجدانية العالية . غير أنها سرعان ما سوف تشيع تدريجياً ، ومن ثم تعمّ شيئاً فشيئاً ، لتأخذ مع الزمن سبيلها إلى مختلف الفئات الأخرى ، التي ستمارسها بأشكال متماثلة ، ولكن بدرجات متفاوتة في الجودة والإتقان .

الفصل الثالث

مادة التثقيف العربي الأمثل

الحضارة هي جماع الأنشطة والنتاجات المعنوية والمادية الرفيعة ، في كل ميدان من ميادين الحياة الإنسانية. وهي ذات وجهين : الثقافة والمدنية . أما الثقافة فهي وجهها المعنوي الجوّاني الشفاف ، المتمثّل في الأنشطة والنتاجات الروحية والعقلية المختلفة ، وأما المدنية فهي وجهها المادّي البرّاني الكثيف ، المتمثّل في الأنشطة والنتاجات المعيشية والعمرانية المتنوّعة . والوجه الأول هو الوجه الأصلي والفوقي والمتبوع ، والوجه الثاني هو الوجه الفرعي والتحتي والتابع . والجوهر الفذّ للثقافة هو الفكر ، الذي به تكون الثقافة ثقافة حقيقية

مثلى ، والذي هو بالتالي مقياسها الحق الذي به تُقاس ، ومقوّمها الأصيل الذي به تتقوَّم .

وإذْ إن الفكر هو جوهر الثقافة الفذّ ، فإن لكل ثقافة من الثقافات القومية الكبرى فكرها الخصوصي الخاص ، أو مادتها الفكرية الأم ، الذي يؤلّف القوام الأصلي الأول لفكرها العمومي العام . وهو فكر يعبّر بشكل مطلق عن ذاتية الأمة التي أنشأته ، بجميع خصائصها الروحيةوالنفسية والعقلية والوجدانية الأصيلة ، وبالتالي يعبر بشكل مطلق عن نظرتها الكلية الشمولية الجامعة إلى الله والإنسان والبشرية والعالم والوجود والصيرورة والكينونة والزمان والمكان والحياة والموت والقدر والمصير ، هذه النظرة التي تكوّن لُباب أديانها وآدابها وفلسفاتها وفنونها وعلومها المختلفة .

والفكر العربي الخصوصي الخاص ، أو المادة الفكرية العربية الأم ، الذي يؤلّف القوام الأصلي الأول للفكر العربي العمومي العام ، هو الفكر العربي الذي

يتمتّع تمتّعاً مطلقاً بالخصائص التالية: التأليهية والتوحيدية والروحانية والمثالية والأخلاقية والإنسانية والحضارية ؛ ذلك لأن هذه الخصائص هي الخصائص الذاتية الخالدة للفكر العربي الحق • والنموذج الأمثل لهذا الفكر العربي الخصوصي الخاص ، أو لهذه المادة الفكرية الأم ، هو الفكر الإسلامي المحض ، هذا الفكر الذي بلغت به الأمة العربية منتهى كمالها المعرفي الكوني الأكبر ، وحقّقت به أروع تجلّياتها الثقافية العالمية العظمى •

ولما كان الفكر الإسلامي المحض يتجوهر ، بجوّانيته وبرّانيته ، في القرآن الكريم والسُّنَّة الشريفة ، فإن أوّل ما يتوجّب على المتثقف العربي أن يقوم به تثقيفياً هو أن ينكبّ على تحصيلهما تحصيلاً ثقافياً عالياً ، يتّسم بالفهم العميق والإدراك الواسع والاستيعاب الدقيق والتمثّل القوي ؛ وذلك من خلال انكبابه على دراسة علومهما الأساسية الكبرى ، اللغة والتفسير والحديث والسيرة والفقه والتشريع ، دراسة منهجية مركزة ، تتيح له أن يفهم

ويدرك ويستوعب ويتمثّل ، أو بالأحرى تتيح له أن يتشبَّع تشبُّعاً تاماً بجميع ما يشتملان عليه من معتقدات ومبادىء وقيم وتعاليم وشرائع وأحكام وأخلاقيات وسلوكيات ومعاملات وعبادات ، مما يمثّل الإسلام ديناً وحضارة ورسالة ونظام حياة ، أيْ مما يمثّل الإسلام عقيدة كونية عظمى •

ولا جَرَمَ أن يكون القرآن الكريم هو جوهر هذه المادة الفكرية الأم • فهو ، بالنسبة الى المثقف العربي الحق ، كتابه الفكري الثقافي الفرد ، الذي لا تُداني منزلته الفكرية الثقافية السامقة منزلة أيّ كتاب فكري ثقافي آخر بتاتاً وبإطلاق • ذلك أنه كتابه الكوني الأعظم ، الذي يشتمل على لُباب الحكمة المطلقة والعلم الكلي والمعرفة الخالصة ، والذي ينبغي له أن يغترف من مَعينه الأبدي الخالد كل المقوّمات الأساسية الكبرى لتثقيفه العربي الأمثل •

وتشبُّعُ المثقف العربي بفكره الإسلامي المحض ،

يعني تشبّعه بروح هذا الفكر الكلية الشاملة ، كما يعني تشبّعه بكل ما يحتوي عليه من مفاهيم ومقولات ومصطلحات وصيغ وأنماط وأساليب ثقافية خاصة • وهو تشبّع يضمن له ما يلي :

أولاً ـ تأمين المادة الفكرية الأصيلة التي يصوغ منها وبها وحولها فكره العربي الثقافي الجديد ، الذي ينشد ابتداعه ويتوخّاه ويسعى الى تحقيقه • وهو فكر نقيّ صافٍ قد خلا خلواً ذاتياً تاماً من جميع الأوشاب الفكرية الغريبة ، الشرقية منها والغربية ، والقديمة والحديثة ، على السواء •

ثانياً ـ امتلاك المعايير الثقافية السليمة ، التي يتسنّى له بواسطتها تقييم كل لون من ألوان الفكر العالمي ، الذي ينبغي اصطفاءه والتثقّف به ، بحيث لا يصطفي من هذه الألوان إلاّ اللون الذي يماثل ويلائم وينسجم مع فكره العربي الحق •

ثالثاً ـ تحديد النهج الثقافي القويم الذي ينتهجه

ويلتزم به ، والذي يقوده ببصيرة هادية الى هدفه التثقيفي المرسوم ، دونما أيّ جنوح أو ضلال أو ضياع .

* * *

أجل ، إنه لا بدّ للمتثقف العربي من أن يجعل فكره الإسلامي المحض هو المادة الفكرية الأم لتثقيفه العربي الأمثل ، هذا إذا ما شاء لهذا التثقيف أن يكون ، حقاً وفعلاً ، تثقيفاً عربياً أمثل . وإن أيّ تثقيف عربي لايجعل من الفكر الإسلامي المحض مادته الفكرية الأم ، هو تثقيف كاذب وفاسد أصلاً ، إنْ من حيث المضمون وإن من حيث الشكل ، وهو بالتالي لن يكون سوى ضرب من ضروب التثقيف الأخرى الكاذبة الفاسدة ، التي تُهيمن اليوم هيمنة شبه كلّيّة على الواقع العربي الراهن ، والتي لاتحمل في طيّاتها سوى العقم والعطالة للفكر العربي ، وسوى المسخ والتشويه للثقافة العربية .

لقد حالت التغريبيّة الهدّامة ، منذ مطالع ما يُدعى بعصر اليقظة العربية ، بين المتثقف العربي وبين فكره العربي

التثقيفي الأصيل ، المتمثّل في فكره الإسلامي المحض ؛ وذلك تحت شعارات التّحديث والتّجديد ، والعصرية والمعاصرة ، والتطور والتقدم ، والخَلْق والإبداع ، الزائفة الخادعة ، موجِّهةً إيّاه نحو الفكر الأوربي البَحْت والثقافة الغربية الصرفة لا غير ؛ فكان أن غدا الفكر والثّقافة العربيّان المُحدثان مجرّدَيْن عموماً من أصالتهما العربية المتفرّدة ، وكان أن أمسى المتثقف العربي متثقفاً غير عربي بعامة ، وكان أن دخل التثقيف العربي الحديث في محنته السلبية الراهنة .

وطبيعي أن جَعْلَ المتثقف العربي فكره الإسلامي المحض هو المادة الفكرية الأم لتثقيفه العربي الأمثل ، يجعل من هذا التثقيف بدوره ثورة فكرية ثقافية كبرى ، ثورة على الواقع الفكري الثقافي الراهن لنسفه بكل أصوله

التغريبية الهجينة الطالحة ، وثورة من أجل الحقيقة الفكرية الثقافية المنشودة لتجسيدها بكل أركانها العروبية الأصيلة .

* * *

غير أن جعل المثقف العربي فكره الإسلامي المحض هو المادة الفكرية الأم لتثقيفه العربي الأمثل ، لا يعني وقوفه عند هذه المادة واقتصاره عليها واكتفائه بها فقط ؛ وإنما يعني انطلاقه منها وبها وعبرها إلى ارتياد مختلف مصادر الفكر الإنساني العالمي العام ، يمتاح منها باصطفاء إيجابي هادف كل ما يحتاج إليه من موادّ ثقافية ممتازة ، يغذّي بها فكره العربي الإسلامي المحض وينمّيه ويطوّره ويرقى به أسمى المراتب والمستويات . ذلك أن التثقيف العربي الأمثل ، إنْ كان في حقيقته الأولى تثقيفاً قومياً

خاصاً ، فإنه في حقيقته الأخرى تثقيف عالمي عام ؛ لأنه إنْ كان في غائيَّته الخصوصية تثقيف بعثٍ عربي ، فإنَّه في غائيته العومية تثقيف بعثٍ كوني ، ولا خلافَ ألبتَّة.

* * *

هذه هي المادة الفكرية الأم للتثقيف العربي الأمثل . إنها الفكر الإسلامي المحض ، متجوهراً في القرآن الكريم والسنة الشريفة . هذا الفكر الفذ ، الذي تشبَّع به المتثقف العربي ماضياً فأنشأ منه أعظم وأروع وأسمى ثقافة إنسانية عرفها التاريخ العالمي القديم ، وسيتشبَّع به المتثقف العربي مستقبلاً لينشىء أيضاً منه أعظم وأروع وأسمى ثقافة إنسانية سيعرفها التاريخ العالمي الحديث .

الفصل الرابع

مصادر التثقيف العربي الأمثل

تتعدّد مصادر التثقيف العربي الأمثل وتتنوّع ، بحيث تكاد تشمل التراث الثقافي الإنساني العام بكليّته. هذا التراث المجيد الذي أبدعته البشرية عبر أممها الحضارية العظمى ، على اختلاف شخصياتها القومية وأزمنتها التاريخية ومداراتها الوجودية ؛ وبالتالي على اختلاف عبقرياتها الفذة المتميّزة ، في مجالات الروح والعقل والنفس والوجدان ، التي تعكسها آدابها وأديانها وفلسفاتها وعلومها وفنونها الرفيعة الممتازة . فكان بحق أثمن ما صاغته هذه البشرية من كنوز رائعة ، وأسمى ما أبدعته من آيات معجزة ؛ مما يجدر بها أن تزهو به وتعتزّ ، ومما يجدر بنا أن نصونه ونحافظ عليه .

وإذا كان التراث الثقافي الإنساني العام هو ، من حيث الصنع والإنتاج ملكاً ذاتياً خاصاً للأمم الحضارية العظمى التي أبدعته ، فإنه ، من حيث الاستعمال والانتفاع، ملك جماعي مشاع لأمم العالم كافة وعلى السواء ودونما أيٍّ تمايز أو تفاضل فيما بينها . فلكل أمة ملء الحق في أن تصطفي منه ما تشاء ، مما تحتاج إليه وتتوخاه من جهة ، ومما يلائمها وينسجم معها من جهة أخرى ؛ كما على كل أمة ملء الواجب في أن ترعاه وتحميه من العبث والتخريب والضياع ، وفي أن تنمّيه وتُغنيه وتُعلي من شأنه وقيمته .

وينقسم التراث الثقافي الإنساني العام ، من حيث اصطفاء الأمم إياه ، إلى ثلاثة أقسام رئيسية كبرى ؛ وذلك تبعاً لطبيعة كل قسم ، وبالتالي تبعاً لحاجة كل أمة إليه . هذه الأقسام هي : قسم الاطّلاع ، وقسم الاقتباس ، وقسم التمثل . أما قسم الاطّلاع ، فهو القسم ذو الفكر المذهبي المحض ، المتمثّل في المذاهب الدينية والأدبية

والفلسفية والفنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ؛ فهذا القسم تصطفيه الأمم بدافع المعرفة التنويرية المجرّدة، أو بدافع الدراسة النقدية المقارنة ، أو بدافع البحث العلمي البحت ، لا غير ، دون لزوم لاقتباسه أو تمثّله ؛ وذلك لكونه القسم الذاتي الخاص جداً ، الذي تتمايز به هذه الأمم وتتفرّد ، وتتغاير وتختلف . وأما قسم الاقتباس ، فهو القسم ذو الفكر العلمي المحض ، المتمثّل في العلوم الرياضية والهندسية والطبيعية والتقنية وغيرها من العلوم الأخرى المماثلة ؛ فهذا القسم تصطفيه الأمم بدافع المعرفة النظرية أو العملية الخالصة ؛ وهو يؤلف القسم الوضعي والتجريبي والصناعي من التراث الثقافي الإنساني العام ، الذي لايحمل هوية قومية معيَّنة ، وإنما يحمل هوية عالمية مشتركة . وأما قسم التمثّل ، فهو القسم ذو الفكر الوجداني العام ، المشتمل على أسمى الرؤى والقيم والمثل والمبادىء والأحلام والآمال والعواطف والمشاعر والأحاسيس الإنسانية الخالدة ؛ فهذا القسم تصطفيه الأمم بدافع ذاتي مطلق ، لكونه القسم الذي يعبِّر عن

جوهرها الآدمي الواحد ، والذي تلتقي على صعيده لقاءها الفطري الحرّ البريء •

ولما كانت الأمة العربية من أبرز الأمم الحضارية العظمى ، التي أسهمت في إبداع التراث الثقافي الإنساني العام ، وفي تنميته وإغنائه وتطويره ، وفي صيانته ورعايته والحفاظ عليه ؛ كانت بالمقابل من أقدر الأمم على استعماله على خير وجه ، والانتفاع به إلى أقصى حدّ ، في بعثها الثقافي الجديد •

ويتكوّن التراث الثقافي الإنساني العام ، بالنسبة للمثقف العربي ، من صنفَيْن أساسيَّيْن كبيرَيْن هما : التراث الثقافي العربي ، والتراث الثقافي العالمي •

التراث الثقافي العربي

يشكّل التراث الثقافي العربي الصّنف الأعرق والأضخم والأعظم والأغنى من التراث الثقافي الإنساني العام • فلقد بزغ مع فجر الحضارة فكان الأعرق وجوداً ، وتكوّن عبر مختلف العصور فكان الأضخم حجماً ،

وانطوى على أسمى روائع الفكر فكان الأعظم قيمة ، وضمّ كل ضروب المعرفة فكان الأغنى محتوى . وبذلك فقد حقّ له أن يكون جوهر هذا التراث الثقافي الإنساني العام وآيته الفذّة .

وينقسم التراث الثقافي العربي ، تبعاً للأطوار الكبرى التي مرّ بها ، إلى ثلاثة أقسام : التراث الثقافي العربي القديم ، والتراث الثقافي العربي الوسيط ، والتراث الثقافي العربي الحديث .

التراث الثقافي العربي القديم :

ينطوي التراث الثقافي العربي القديم على جماع ما أنتجته الأمة العربية من فكر إنساني رفيع في طورها الحياتي الأوّل ، الممتدّ منذ الزمن اليمني الأصغر حتى الزمن الإسلامي الأعظم ، والمنسحب على عدد لا يُحصى من العصور المديدة والشعوب الكثيرة ، التي كانت قوام التاريخ البشري آنذاك ، أمثال العصور والشعوب المعينية والسبئية والحميرية واللّحيانية والثمودية والمكّية

والتيمائيـة والفرعونيـة والنوبية والحبشيـة والأكَّادية والعمـورية والبابلية والآشورية والآراميـة والكنعانيـة والفينيقيـة والعبـرية والأدومية والنَّبطيـة والتدمـرية والجـاهلية ، وغـيرها من العصـور والشـعوب ذات الآثار الحضارية البارزة .

وعلى الرغم من ضخامة التراث الثقافي العربي القديم واتّساعه ، فإن ما آل إلينا منه حتى اليوم لا يكاد يشكّل سوى جزئه الأصغر ؛ أما جزؤه الأكبر فما زال في مطاوي المجهول ، ينتظر ابتعاثه من جديد ؛ فهو إمَّا دفين أو حبيس أو مكتوم أو منسيّ أو مُهمَل أو مُضيَّـع أو ما شابه ذلك . ولو أنه تحصَّل بكلِّيته وتمامه ، لكان له شأن أيّ شأن في مجالَيْ الفكر العالمي والثقافة الإنسانية ؛ وذلك بما يُدخله عليهما تاريخياً من تعديلات وتصحيحات جذرية عميقة ، ومن ثم بما يحـدثه فيهما تقييميّـاً من تبديلات وتغييرات جوهرية هامة ؛ هذا عدا عما يضيفه إليهما مـن خصب وغنىً ومن روعة وجلال .

ويشتمل هذا الجزء الأصغر من التراث الثقافي العربي القديم ، في مجمله ، على مزيج متنوّع جامع من الأساطير والحكايا والأشعار والخطب والأمثال والحكم والمواعظ والوصايا ، ومن المذاهب والمعتقدات والعبادات والتعاليم والشعائر والطقوس ، ومن الشرائع والقوانين والنظم والأحكام ، ومن المعارف والعلوم والفنون . ومع ما يبدو فيه هذا المزيج من تجزيئية ظاهرية عامة ، فإن هناك وحدة داخلية خاصة تنتظمه ؛ هي الوحدة الفكرية ، وحدة الرؤى والقيم والمُثُل والتصوّرات ؛ والوحدة اللغوية ، وحدة الألفاظ والتراكيب والأسلوب والخط والكتابة . وكذلك مع ما يبدو فيه من اختلاط وتداخل وتشابك ؛ فإنه يمكن توزيعه ، بشكل ما من أشكال التصنيف الضيّقة المحدودة ، على ضروب الفكر المختلفة ، الأدبي والديني والفلسفي والعلمي والفني .

ولعل أبرز ما في التراث الثقافي العربي القديم من ضروب الفكر هو الفكر الديني ، المتمثل في الحنيفيّة

الإبراهيمية الأولى ، واليهودية الموسوية التابعة ، والمسيحية العيسوية المتمّمة ، والآخذ كماله المطلق بعدئذ بالإسلام المحمدي الختام . فهو الفكر الذي نقل البشرية نقلة كونية واسعة من أزمنة الظلام الوثني الملحد إلى أزمنة النور التأليهي الموحّد ، ومن أعماق المعرفة الأرضية الضيّقة إلى آفاق المعرفة السماوية اللاحبة ، ومن سجن الذات الجسدية الفانية إلى ملكوت الذات الروحانية الخالدة ؛ فكان بذلك البرزخ الفاصل بين حالَيْن من أحوالها الحياتية الكبرى ، حال الجهالة والضلال وحال الحلم والرشاد .

وإذا كان لكل عصر من عصور هذا الطور العربي القديم مكانته وأهميته وقيمته التراثية الثقافية العامة ، فإن للعصر الجاهلي من بينها جميعاً مكانته وأهميته وقيمته التراثية الثقافية الخاصة ، التي يتميّز بها عنها كافة . وذلك لكونه العصر الذي كان نهاية هذه العصور المديدة وخاتمتها ؛ وكذلك لكونه العصر الذي انبثق منه مباشرة ،

وبصورة كمالية متعالية ، العصر الإسلامي الأعظم . وهو أمر يوجب على المتثقف العربي أن يوليه عناية ثقافية فائقة ، وأن يخصّ كل ضرب من ضروبه الفكرية بأكبر قدر من الاهتمام الدراسي العميق والشامل ، ولا سيما ضربه الأدبي ؛ هذا الضرب الذي يكاد يمثّل ، في شعره ونثره الرائِعَيْن ، جوهر الفكر العربي الجاهلي .

وعلى الرغم من الوضع غير السَّويّ الذي هو عليه التراث الثقافي العربي القديم ، فإنه يؤلّف عيّنة تمثيلية جيدة للفكر العربي ، ونموذجاً استدلالياً ممتازاً للفكر الإنساني ، وقتذاك .

والهدف الأساسي الأول ، الذي ينبغي للمتثقّف العربي أن يتوخّاه من وراء تثقّفه بالتراث الثقافي العربي القديم ، ليس أن يطّلع اطّلاعاً تاريخياً عاماً على مجمل جوانبه وأبعاده وآفاقه فحسب ، ولا أن يُلِمّ إلماماً واسعاً بضروبه وأشكاله وألوانه لا غير ، ولا أن يتعرّف تعرّفاً دقيقاً على موادّه وعناصره ومكوّناته أو على

سماته وطوابعه ومزاياه فقط ؛ وإنما أن يرصد من خلال كل أولئك مراحل نشوئه وتكوّنه وتطوّره ، ومن ثمّ أن يستكشف ذاتيّته الخاصة بجميع مقوماتها وخصائصها الفكرية الأصيلة . ذلك لأنّه بمثل هذيْن الرصد والاستكشاف يتسنّى له ؛ كمتثقف قومي ، أن يمهّد السبيل واسعاً وقوياً لنفسه لاحتواء الذاتية الفذة للفكر الإسلامي ، وبالتالي لاحتواء الذاتية العظمى للفكر العربي الكلّي الحق .

وهكذا إذن ، فإن التثقّف بالتراث الثقافي العربي القديم ليس غاية في حدّ ذاته ، كما يحلو للبعض أن يجعله، وإنما هو وسيلة ، ووسيلة فقط إلى غاية أجلّ وأعظم هي التثقف بالتراث الثقافي العربي الوسيط .

التراث الثقافي العربي الوسيط :

إذا كان التراث الثقافي العربي الكل ، يشكّل الصنف الأعرق والأضخم والأعظم والأغنى من التراث الثقافي الإنساني العام ، فإن التراث الثقافي العربي الوسيط،

المتمثّل في التراث الإسلامي ، يشكّل القسم الأرفع والأروع والأكمل من هذا التراث الثقافي العربي الكل ، وبالتالي يشكّل القسم الأرفع والأروع والأكمل من ذلك التراث الثقافي الإنساني العام . فنحن لا نكاد نجد من بين جميع أقسام التراث العربي ، أو التراث الثقافي العالمي، على السواء ، ما يفوق أو يعادل أو يداني في المكانة والقيمة والأهمية التراث الثقافي الإسلامي بإطلاق .

وعلى الرغم مما حلّ بالتراث الثقافي العربي الإسلامي الوسيط من نكبات تدميرية شرسة ، على أيدي الصليبيين والتتار ومحاكم التفتيش ، كانت قد قضت على جزء كبير منه ؛ وما حيك حوله من مؤامرات تخريبية هدّامة ، على أيدي المبشّرين والمستشرقين والتغريبيّين والشعوبيين ، كانت قد استهدفت تشويهه ومسخه وتزويره والعبث به وتعطيله ؛ وما تعرّض له من نهب وسلب وسرقة وابتزاز ، على أيدي المستعمرين ، كانت قد أدّت إلى تمزيقه وبعثرته وتوزيعه على مكتباتهم العامة والخاصة يجمّدونه فيها ؛

وما أصابه من فقدان وضياع ، على أيدي الحوادث والأحداث الداخلية والخارجية ، كانا قد أذهبا بجزء كبير آخر منه ، وما لقيه من إهمال ولا مبالاة وتهاون وتقصير في جمع وإحياء وتجديد مخطوطاته ، على أيدي أهله عرب اليوم أنفسهم ، كانت قد أسهمت في التواطؤ على تدميره وإعدامه ؛ على الرغم من كل أولئك ، فإن هذا التراث الثقافي يبقى أعظم ما خلّفته الأمة العربية إطلاقاً ، ومن ثم أعظم ما خلّفته البشرية قاطبة ، من تراث ثقافي ، وإن سَبْراً حقيقياً مُحْكماً له ، ليضعنا بحقّ أمام ينبوع غزير لا قرار له من جليل الفكر ومُعجز العلم ونفيس المعرفة ، مما لم تبدع مثل جلاله أمة من الأمم التاريخية العظمى ، ولم تبلغ مبلغ إعجازه حضارة من الحضارات العالمية الكبرى ، ولم تنسج مثل نفاسته ثقافة من الثقافات الإنسانية الماجدة ، على مرّ العصور القديمة والحديثة سواء بسواء .

ويتمثّل التراث الثقافي الإسلامي في جماع ما أبدعته

الذات العربية في ذلك الزمن الأعظم من تتاج في كل ميدان من ميادين الروح والعقل والنفس والوجدان ، أي في كل ميدان من ميادين الدين والأدب والفلسفة والفن والعلم والاجتماع والسياسة والتاريخ والأخلاق وغيرها • وهو تتاج قد حقّق لنفسه من الاتّساع والشمول ومن التنوّع والتعدّد ومن التفرّع والتشعّب ، ما احتوى فيه على كل لون من ألوان الفكر أياً كان ، وعلى كل ضرب من ضروب المعرفة كيف هي ؛ كما حقّق لنفسه من الطوابع والسمات الذاتية الخاصة ما غدا معها متميّزاً تميّزاً فذّاً عن غيره من التراثات الثقافية العالمية الأخرى • وقد نشأ هذا التراث الجليل في أصله وأساسه من القرآن الكريم والسنّة الشريفة ، وهما قوام العقيدة الإسلامية الأول والأوحد ، ونما وتفتّح وازدهر من خلالهما ؛ ولذلك فإنه ، في ماهيّته ، يؤلّف وحدة فكرية تامة ومتكاملة ومتجانسة ومتّسقة ، تتماثل فيها المقوّمات والخصائص الجوهرية وتأتلف وتتداخل وتنسجم بصورة مثلى •

ومع ما يتمتّع به التراث الثقافي الإسلامي بعامة من

أصالة عربية محضة ، فإن هناك جزءاً محدوداً جداً منه يتّسم بالهجنة الأعجمية الشديدة ؛ هذه الهجنة التي تسلّلت إليه وداخلته وامتزجت به بصورة سلبية شاذّة ، إمّا نتيجة لاحتواء الثقافة العربية الإسلامية الأولى على ثقافات الأجناس الأخرى التي اشتمل عليها المجتمع العربي آنذاك ، وإمّا نتيجة لانفتاح هذه الثقافة على ثقافات الأمم الحضارية المشهورة . وهو أمر يجعل هذا التراث مقسوماً إلى قسمَيْن اثنَيْن متمايزيْن هما : التراث الثقافي العربي الإسلامي الأصيل أو التراث الثقافي العروبي ، والتراث الثقافي العربي الإسلامي الكاذب أو التراث الثقافي الشعوبي . أما الأول فهو التراث الذي استمدّ مادته الفكرية الأم من صلب العقيدة الإسلامية المحضة ، بقرآنها الكريم وسنّتها الشريفة ، والذي من ثم كان مطابقاً لها في جوهرها مطابقة مطلقة ؛ وأما الثاني فهو التراث الذي استمدّ مادته الفكرية الأم من مصادر عقائدية غريبة ، فارسية وهندية ويونانية ورومانية وغيرها ، والذي من ثم كان مبايناً ومناقضاً ومناهضاً للعقيدة الإسلامية المحضة.

وهذا التراث الثقافي الشعوبي الشاذ هو بعينه التراث الأثير جداً لدى المستشرقين اليوم ، ولدى أتباعهم من التغريبيين ؛ حيث جعلوه قبلة أنظارهم ومدار عنايتهم ، وحيث أجهدوا أنفسهم في البحث عنه واستكشافه وتجميعه، وحيث بذلوا كل ما في وسعهم من أجل تحقيقه وطبعه ونشره وتوزيعه ، وحيث انكبّوا طويلاً على وضع الدراسات الواسعة الدقيقة والبحوث الشاملة المستفيضة عنه ، وحيث بالغوا كثيراً في تعظيمه وإعلاء شأنه ، كل ذلك ، لا لكونه ذا قيمة فكرية فائقة أو أهمية معرفية بالغة أو مكانة علمية رفيعة ، وإنما لشعوبيته ، وشعوبيته فقط ، متوخّين من فعلهم هذا إظهاره على التراث العروبي وتغليبه عليه وضربه به ، وبالتالي متوخّين جعله أداة فعّالة من أدوات تخريب الفكر العربي الحديث .

وكذلك ، مع ما يتمتّع به التراث العروبي نفسه من صلاحية تامة وجودة كاملة ككلٍّ عام ، فإنه يشتمل على أجزاء بسيطة جداً ، ضئيلة الصلاحية والجودة . وعلى

هذا ، فهو ينطوي على أربعة ضروب هي : التراث الحيّ والتراث الميّت من جهة ، والتراث الممتاز والتراث العادي من جهة أخرى • أما التراث الحيّ فهو التراث الذي يحمل فكراً خالداً يؤهّله لأن يكون صالحاً لكل عصر ، وبالتالي لأن يكون مستمراً في كل زمان ؛ على حين أن التراث الميت هو التراث الذي يفتقد الى مثل هذا الفكر ، وبالتالي فهو لايصلح إلا لعصره وزمانه ، لا يتجاوزهما إلى غيرهما من العصور والأزمان • وأما التراث الممتاز ؛ فهو التراث الذي يحمل قدراً وافراً من الفكرية الرفيعة ؛ على حين أن التراث العادي هو التراث الذي تقلّ أو تندر فيه هذه الفكرية •

وحَرِيّ بمثل هذا التقسيم الحقيقي والحق للتراث الثقافي العربي الإسلامي ، أن يكون هو القاعدة الأساسية العامة التي ينبغي أن تقوم عليه مناهج بعثه وإحيائه وتجديده •

وأياً ما كان الأمر ، فإن اشتمال التراث الثقافي الإسلامي الكلّ العام على جزء محدود جداً من التراث

الشعوبي ، لايعني شيئاً ألبتَّة بالنسبة لوحدته الفكرية العقيدية العامة ، وبالتالي بالنسبة لعروبته الأصيلة ؛ كما أن انطواء قسمه العروبي على أجزاء بسيطة جداً ، ضئيلة الصلاحية والجودة ، لايعني شيئاً ألبتَّة بالنسبة لصلاحية هذا القسم وجودته ، وبالتالي بالنسبة لصلاحية وجودة التراث الثقافي العربي الإسلامي ككلّ عام . ذلك أن العبرة هنا ليست في العَرَضي والجزئي والقليل ، وإنما في الجوهري والكلّي والغالب .

أما موقف المتثقف العربي الحق من التراث الثقافي العربي الإسلامي الوسيط ، فهو بالبداهة موقف التبنّي الكلّي لقسمه العروبي الأعظم ولاسيما في ضربَيْه الأكبرَيْن ، الحيّ والممتاز ، والالتزام التام به والمسؤولية الكاملة عنه ؛ ومن ثم موقف العناية المطلقة به ، بحثاً ودراسة، وتحصيلاً واستملاكاً ، وتمثّلاً وتشبّعاً وتجديداً وإبداعاً . ذلك لأنه،إذا كان القرآن الكريم والسنّة الشريفة هما جوهر المادة الثقافية الأم للتثقيف العربي الأمثل ، فإن هذا القسم

من التراث ، كنتاج أصلي لذاك الجوهر ، هو مصدره الثقافي الأول والأساس ، الذي ينبغي أن تكون جميع المصادر الثقافية الأخرى تابعة له وملحقة به وصابّة فيه ومكمّلة إيّاه ، وذلك باعتباره الأصل والمنبع ، واعتبارها الفروع والروافد .

التراث الثقافي العربي الحديث :

يتمثّل التراث الثقافي العربي الحديث في جماع النتاج الفكري الذي نشأ في أحضان ما يُدعى بعصر اليقظة العربية ، منذ بداية هذا العصر قبل قرنَيْن من الزمن حتى اليوم . وبذلك فهو يمثّل الثقافية الخاصة لهذه اليقظة ، وبالتالي يمثّل هذه اليقظة ذاتها ، باعتبار أن الثقافيات هي أكناه اليقظات ومراياها العاكسة .

وعلى الرغم من تسمية هذا النتاج بالتراث العربي ، فإنه في حقيقته الكلية العامة ، لا يكاد يحمل من العربية سوى هذه التسمية اللفظية المجرّدة . أما من حيث المسمى ، فهو في مجمله تراث لاعربي غريب ، إنْ روحاً ومحتوىً

وإنْ شكلاً وأسلوباً . وذلك لكونه لا يشتمل على شيء ما من مقوّمات الفكر العربي الأصيل الجوهرية وخصائصه الأصلية وسماته العظمى ؛ أو بالأحرى لكونه يشتمل على مقوّمات وخصائص وسمات تُباين وتناقض وتناهض هذا الفكر . وهي مقوِّمات وخصائص وسمات نجمت نجوماً طبيعياً عن العناصر الأساسية الكبرى ، التي تكوّن منها أصلاً .

وفي الحق ، فإن القسم الأكبر والغالب من التراث الثقافي العربي الحديث هو تراث تغريبي هجين ، قد تكوّن تكوّناً طفيلياً كاذباً من فُتات الفكر الاأوربي الوافد ونفايات الثقافة الغربية المستوردة . أمّا القسم الآخر منه ، فهو تراث سلفي مشوّه ، قد اقتُبس اقتباساً سلبياً فاسداً من أخلاط التراث الثقافي العربي القديم والوسيط . وبذلك ، فإن كلا القسمَيْن قد تجرّدا من أصالتهما العربية الحقة ، المنسوجة من الإلهام والحيوية والفاعلية والخصب والتوهّج ، ومن ثم قد تجرّدا من

إبداعهما العربي الحقيقي ، المتمثّل في الجِدّة والابتكار والجودة والروعة والجلال ؛ ذلك لأن الأصالة هي منبع الإبداع الفكري الفذ .

ويكفي أن تتفحّص جيداً المادة الفكرية الأم للتراث الثقافي العربي الحديث،بقسمَيْه التغريبي الهجين والسَّلفي المشوّه ، حتى نجد أن المادة الفكرية الأم للتراث التغريبي تتصف عموماً بكونها وثنية إلحادية ؛ ومادية طبيعية ، وإباحية انحلالية ، ووجودية وضعية ، ونفعية ذرائعية ؛ وهي صفات تجعل منه تراثاً لا ذاتياً شاذاً ، ومن ثم تراثاً تخريبياً هداماً . كما نجد أن المادة الفكرية الأم للتراث السلفي تتّصف عموماً بكونها تقليدية محاكاتية ، وتكرارية اجترارية ، وشكلية ظاهرية ، وبرّانية سطحية ، وسكونية آلية ؛ وهي صفات تجعل منه تراثاً لا حقيقياً ممسوخاً ، ومن ثم تراثاً عبثياً لا مجدياً . واتّصاف كلا القسمَيْن بهذه الصفات مجتمعة ، وبالتالي تجرّدهما من أصالتهما العربية الحقة ، يجعل من التراث الثقافي العربي

الحديث بعامته تراثاً غثاً رخيصاً من حيث محتواه الفكري، وضعيفاً ركيكاً من حيث شكله الفنّي؛ الأمر الذي يخرجه من نطاق التراثات العالمية الإنسانية الرفيعة .

أمّا الموقف الصحيح الذي ينبغي للمثقّف العربي أن يقفه من هذا التراث الثقافي العربي الحديث ، فهو موقف الرفض العام له؛هذا الرفض المنبعث من اعتباره نتاجاً انحطاطياً جديداً ، لايحمل من السمات سوى سمات السلب والعدمية والعطالة . وهي سمات قد مكّنته من أن يلعب دوراً لاحدود له في إفساد الأجيال العربية المعاصرة ومسخها ، وفي تضليلها وتضييعها ، وفي الأيلولة بها أخيراً إلى أسوأ حال فكري ، وشرّ مصير ثقافي ؛ وبالتالي إلى أسوأ حال حياتي ، وشرّ مصير وجودي .

غير أن كَوْن التراث الثقافي العربي الحديث هو في مجمله تراثاً لاعربياً غريباً ، لايعني أبداً أنه خالٍ تماماً من أي جزء عربي أصيل؛فهو في الحقيقة ينطوي على مثل هذا الجزء المتفرّد ، ولكنْ على قلّة وضآلة من جهة ، وعلى عدم

شيوع واشتهار من جهة أخرى . ويتمتَّع هذا التـــراث العربي الأصيل ، على قلَّته وضآلته وعلى عـدم شيوعه واشتهاره ، بقيمة وأهمية ومنزلة ذاتية عالية ، وذلك لكونه يحمل كلّ أو معظمَ أو الكثيرَ من المميّزات التي تجعل منه المثال النموذجي للثقافة العربية الحقَّـــة ، وبالتالي لما ينبغي أن يكونه النتاج الثقافي العربي المقبل .

ولما كان الجزء العربي الأصيل هو وحده الجدير ، من بين التراث الثقافي العربي الحديث ، بأن يكون مادة التثقيف العربي الأمثل ، فإنه ينبغي الحرص الشديد على تحصيله تحصيلا ممتازاً،إن لم يكن بكليته فبمعظمه.غير أنه لما كان هذا الجزء قليلاً ضئيلاً وعديم الشيوع والاشتهار، أو بالأحرى لما كان بعيد المتناول ويكاد يكون ضائعاً أو محجوباً أو محجوراً عليه ، فإن المثقف العربي سوف يلقى صعوبات ومشاقّ جمَّـــة ، ومن ثم سوف يبـــذل طاقات وجهوداً كبرى في سبيل التنقيب عنه واستخلاصه وتوفيره ؛ ذلك أن المشكلة التثقيفية هنا ليست مشكلة تحصيل موادّ ثقافية موجودة ، بل مشكلة تأمين موادّ ثقافية مفقودة .

التراث الثقافي العالمي :

يتألف التراث الثقافي العالمي من مجموع التراثات الثقافية الخاصة التي أنشأتها الأمم العظمى غير الأمة العربية ، عبر مساراتها التاريخية المديدة • وهي تراثات تتفاوت في حجومها الكمّية المختلفة وتتباين في ضروبها الكيفية المتعدّدة ، كما تتفاوت وتتباين في قيمها الفكرية المتنوّعة وأهمياتها الثقافية المتمايزة ، وهو أمر ناجم نجوماً طبيعياً لازماً عن تباين أممها في شخصياتها القومية ، وتفاوتها في مستوياتها الحضارية •

وينقسم هذا التراث ، من حيث الزمن ، إلى قسمَيْن كبيرَيْن هما : التراث الثقافي العالمي القديم ، والتراث الثقافي العالمي الحديث •

التراث الثقافي العالمي القديم

يتمثل التراث الثقافي العالمي القديم أكثر ما يتمثّل في تراث الأمم الصينية والهندية والفارسية واليونانية والرومانية • وهي الأمم التي احتلّت في الماضي البعيد

مرتبة حضارية رفيعة ، وحازت على شهرة تاريخية واسعة، والتي من ثم صار تراثها هذا الممثّل العام لهذا التراث الثقافي العالمي القديم برمّته •

وقد كان للأمة العربية ، ولاسيما في طورها الإسلامي الوسيط ، الفضل الأول والأكبر في الحفاظ على التراث الثقافي العالمي القديم وصيانته من الضياع والاندثار والفناء • فلقد تبنّته بصدق واحتوته بأمانة وضمّته إليها بإخلاص ، مضفية عليه من عبقريتها الفذة ما أعاد إليه الحياة والحيوية والنضارة ، وما زاد في قيمته وأهميته ومنزلته • وهو أمر يظهر بجلاء شديد مدى ما تُكنّه هذه الأمة الحضارية من حرص منزّه على هذا التراث النفيس ، وبالتالي مدى ما تكنّه من محبة وتوقير فائقَيْن للعلم والمعرفة •

ومع اشتمال تراث كل أمة من هذه الأمم الحضارية على ضروب الفكر الثقافي ، الديني والأدبي والفلسفي والعلمي والفني وغيره من ضروب الفكر الكبرى ؛ فقد

تميَّزت كل واحدة منها بضرب خاص منه ، باتت معروفة ، بل ذائعة الصيت ، به • فعُرفت الصين بالحكمة ، والهند بالدين ، وفارس بالأدب ، واليونان بالفلسفة ، والرومان بالتشريع • وهو ما يُسهّل كثيراً على المثقّف عملية اصطفائه التثقيفي المنشود •

وعلى الرغم من أن التراث الثقافي العربي ، ولاسيما الوسيط منه ، يشكّل الصنف الأعرق والأضخم والأعظم والأغنى من التراث الثقافي الإنساني العام ؛ الأمر الذي يعني أن بمقدور المثقف العربي أن يكتفي به في تثقيفه العربي الأمثل ، دونما أية حاجة ماسة أو غير ماسة إلى التراث الثقافي العالمي القديم بالذات ؛ على الرغم من ذلك، فإن على هذا المثقف أن يُعير هذا التراث بعضاً من اهتمامه وعنايته ، وذلك بغاية الاطّلاع التاريخي المحض ، الذي يتوخى منه إغناء معرفته الكونية العامة وإخصابها ، وتوسيعها وتعميقها ، وتنويعها وتلوينها ، لاغير • وهو اطّلاع ينبغي أن يكون قائماً على أساس تقييمي دقيق

ومحكم لكل ضرب من ضروبه الشهيرة الذائعة ، وبالأخص ضرب الفلسفة اليونانية ، هذا الضرب الذي بولغ كثيراً جداً ، ولأسباب تحيّزية مصطنعة ، في تقييمه تقييماً خيالياً فائقاً ، لا يكاد يتناسب إطلاقاً وتقييمه الحقيقي غير الفائق .

التراث الثقافي العالمي الحديث

من المفترض ، كحق وواجب ، أن يكون هناك تراث ثقافي عالمي حديث ، هو في جوهره امتداد عضوي حيّ للتراث الثقافي الإنساني العام ، المتحدّر عبر ماضي البشرية اللاحب الطويل ، كما من المفترض أيضاً ، كحق وواجب ، أن يكون هذا التراث حصيلة كلية جامعة لمختلف النتاجات الثقافية الممتازة لأمم هذا العصر كافة . هذا من حيث الافتراض الوجوبي الحق ، أو من حيث ما ينبغي أن يكونه التراث الثقافي العالمي الحديث ، أما من حيث التحقّق الواقعي الراهن ، أو من حيث ما هو كائنه فعلاً ، فالأمر على خلاف ذلك تماماً . فهذا التراث يكاد يتجسّد برمّته في الثقافة الأوربية الغربية المعاصرة ، التي تسود عالم اليوم .

إنه قد يتاح لثقافة أمة ما من الأمم أو قارة ما من القارات ، في طور تاريخي معيّن ، أن تسود العالم أجمع ، وأن تطبعه بطابعها القومي أو العرقي الخاص . ويكون ذلك من جهة ، بحكم الضرورة والأحقية والوجوب والإمكان ؛ ومن جهة أخرى بسبب ما تمثّله هذه الثقافة من عظمة في الروح ، وجلال في العقل ، وسموّ في القلب ، وغنىً في الوجدان ، وروعة في الخيال ، وجمال في الشكل، وسحر في الأداء ؛ وما تعتمده في سبيل انتشارها وشيوعها من أساليب ووسائل وأدوات إنسانية خيِّرة ، تقوم على الحوار البنّاء والانفتاح الايجابي والتبادل الحرّ والتفاعل الحيوي ؛ وما تهدف إليه ، بدافع الشعور العميق بالمسؤولية الحضارية نحو البشرية جمعاء ، من تقدّم وترقٍّ ونزوع نحو الأفضل والأكمل والأمثل . مما يجعلها متميِّزة متفوّقة بين أقرانها ، ومن ثم مما يجعلها في مرتبة السيادة القيادية الرشيدة ، التي تقوم على التوجيه الصادق والريادة الأمينة والعطاء المخلص لمختلف الثقافات القومية أو القارية الأخرى ؛ وبذلك يغدو طابعها العالمي نتيجة طبيعية

لتلاقي وتداخل وتلاقح هذه الثقافات جميعها ، ومن ثم لتمازجها وتلاحمها وانصهارها مجتمعةً في بوتقة واحدة هي بوتقة العصر ؛ بحيث يغلب على شكلها العام ، الشكلُ الخاصّ للثقافة القومية أو القارّية المتميّزة المتفوّقة . وهو ما يكاد ينطبق تماماً على الثقافة العربية الاسلامية في الماضي ، وما لايكاد ينطبق إطلاقاً على الثقافة الأوربية الغربية في الحاضر .

فالثقافة الأوربية الغربية المعاصرة ، إذْ تسود عالم اليوم ، لاتسوده عن جدارة واستحقاق نا جمَيْن عن تميّزها وتفوّقها في المقوّمات والخصائص والسِّمات الروحية والعقلية والقلبية والوجدانية والجمالية الرفيعة الممتازة ؛ بل تسوده عن تسلّط تعسّفي أثيم ، ناجمٍ عما يكمن وراءها من قوة استعمارية كبرى ، عسكرية وسياسية واقتصادية وتقنية . وعلى هذا ، فهي إذْ تأخذ صفة العالمية ، لا تأخذها لمعروفها الإنساني الكبير وفضلها الحياتي العميم على البشرية والحضارة والكون ؛ وإنما لكونها ركناً أساسياً أعظم من أركان الاستعمار العالمي الحديث .

وقد أجازت هذه الثقافة الاستعمارية لنفسها حقّ القضاء على كل ما عداها من ثقافات الأمم الأخرى ، منها والحديثة على السواء ؛ وذلك عن طريق تخريب أو تشويه أو طمس أو إعدام أجود وآصل وأرفع ما تشتمل عليه هذه الثقافات القومية من قيم فكرية ؛ كما أجازت لنفسها حقّ الوصاية على كل ثقافة جديدة صاعدة ، وحقّ التحكّم في أمرها ، وحقّ الحيلولة دون تقدّمها وترقّيها. وبذلك فقد مسخت الفكر الإنساني العام ، وأفقرت من تلاوينه وصوره العالمية ، وحدّت من أبعاده وآفاقه الكونية ؛ لتحوّله من ثم إلى مادة شيئية معلّبة ، متشابهة المعالم والسمات ، متماثلة الصيغ والأنماط ؛ بعد أن احتكرته لصالحها الشخصيّ احتكاراً سيئاً ، وكرّسته لأغراضها الخاصّة تكريساً فاسداً .

وهكذا ، فقد كان وجود الثقافة الأوربية الغربية المعاصرة وبالاً على العالم كلّه ، ولا سيما على الجزء المتخلّف منه ، وهو الجزء الأضخم والأوسع من هذا العالم .

ولا يخفّف من بشاعة هذا الوبال وقبحه ووخامة آثاره ونتائجه ما تتضمّنه هذه الثقافة من منجزات علمية وتقنية وصناعية ثمينة ، فذلك لا يُعدّ ذا قيمة وأهمية ، إذا ماقيس الى ما تحتوي عليه بالمقابل من أوبئة روحية ونفسية فتّاكة ومن علل عقلية ووجدانية مُميتة ، تتمثّل عموماً فيما نشرته في مختلف المجتمعات البشرية الأخرى من مذاهب دينية وأدبية وفلسفية وفنية وسياسية واجتماعية واقتصادية، كانت في مجملها عوامل هدم وتدمير لذاتيّات هذه المجتمعات .

هذه الثقافة الأوربية الغربية المعاصرة هي التي فُتِن بها المثقفون العرب التغريبيون فتنة مطلقة ، لأسباب عديدة منها البريء ومنها غير البريء . فتبنّوها تبنّياً كلّياً بقضّها وقضيضها ، وانتموا إليها انتماء كاملاً بلغ ذروة التعصّب الأعمى ، وطبعوا بها ذواتهم ظاهراً وباطناً ، جاعلين منها مادتهم التثقيفية الأم والوحيدة التي لاينبغي أن تخالها مادة تثقيفية أخرى،مُشيحين في نفس الوقت إشاحة

عدائية سافرة عن كل ثقافة عربية أصيلة مهما كانت. فكان أن غدوا بهذه الثقافة الأجنبية الغربية المستوردة فاسدين ومفسدين معاً ، وسيئين ومسيئين على السواء ؛ ثم كان أن أصبحوا معها في حال من الفصام السلبي التام عن قوميتهم الحقة وإنسانيتهم الحقيقية ، ذلك لأن الثقافة هي روح القومية كما هي روح الإنسانية .

ولمّا كان الفكر العقائدي هو جوهر كل ثقافة ، وبالتالي لما كان الفكر العقائدي الأوربي هو جوهر الثقافة الغربية المعاصرة ؛ ومن ثم لما كانت المقوّمات الأساسية الكبرى لهذا الفكر هي المادية والإلحادية والعلمانية والإباحية والطبيعية والوضعية والذرائعية والنفعية والوجودية وغيرها من المقوّمات المماثلة ؛ هذه المقوّمات التي تناقض مناقضة كلية مقوّمات الفكر العقائدي العربي الأصيل ، المتمثّلة في الروحانية والتأليهية والتوحيدية والمثالية والأخلاقية والخيريّة وسواها من المقوّمات المشابهة ؛ لما كان ذلك كذلك ، فإن المثقف العربي هو في

غنىً تام عن تحصـــيل هذا النوع من الفكـــر الأوربي ، وبالتالي عن تحصيل القسم الأعظم من هذه الثقافة الغربية المعاصرة ؛ اللهمّ إلا ضمن حدود الاطّلاع المعرفي والدراسة النقدية والبحث المقارن لا غير . والنوع الوحيد الذي ينبغي له أن يوليه عنايته الايجابيــة الكبرى ويعمل على اقتباسه اقتباساً اصطفائياً دقيقاً هو النوع العلمي المحض ، المجرّد من أية عقائدية فكرية خاصة ؛ وذلك لكونه القسم العقلاني الخالص أو التجريبي البحت أو التطبيقي الصرف من هذه الثقافة ؛ وهو نوع لا يحمل أيّة هوية ذاتية معيّنة، بل على العكس يحمل هوية عالمية عامة .

أجل ، إن المتثقف العربي في غنى تام عن تحصيــل الفكر العقائدي الأوربي تحصيـــل تمثّلٍ أو تبنٍّ أو انتماء ، سواء في صيغه الأدبية والفلسفية والفنيـــة أم في أشكاله الاجتماعيـــة والسياسية والاقتصادية . وذلك لا بسبب كونه فكراً مناقضاً كلياً للفكر العربي الحق فحسب، بل أيضاً لكون هذا الفكر العربي الحق ، المتمثّل في الفكر

الاسلامي المحض ، يحمل من الصيغ الأدبية والفلسفية والفنية ومن الأشكال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ما يفوق في قيمته وروعته وعظمته صيغ وأشكال ذلك الفكر العقائدي الغربي بكثير •

* * *

هذه هي المصادر الأساسية الكبرى للتثقيف العربي الأمثل • إنها في مجملها ، جماع التراث الثقافي ذي الشهرة القديمة أو الحديثة المعروفة • ولكن هل يقتصر التراث الثقافي الإنساني العام على هذه المصادر الأساسية الكبرى لا غير ؟ وهل يتوجب على المثقف العربي أن يقصر عنايته عليها وحدها فقط ؟

الحقيقة أن التراث الثقافي الإنساني العام لا يقتصر على المصادر الأساسية الكبرى لا غير ، وإنما يتجاوزها الى مصادر أخرى غيرها • وهي مصادر فرعية صغرى ، ولكنها قد لاتقلّ من حيث القيمة الفكرية والأهمية الثقافية

عن تلك المصادر الأساسية الكبرى • وتتألف هذه المصادر الفرعية الصغرى من مختلف التراثات الفكرية الثقافية القليلة أو الضئيلة ، التي أبدعتها الأمم والشعوب القديمة والحديثة غير المشهورة تاريخياً أو حضارياً ، والتي تتميَّز أكثر ما تتميَّز بنكهتها الذاتية الخاصة جداً ، التي يمكنها أن تغني من تلاوين التثقيف العربي الأمثل الإنسانية،وتزيدفي إيقاعاته العالمية ، وتوسِّع من تموجاته الكونية • الأمر الذي يوجب على المتثقف العربي أن يُعنى بها عنايته بالمصادر الأساسية الكبرى ؛ ذلك أن قيمة تراث فكري ثقافي ما ، لا تقوم على ما كسبه من شهرة وصيت ، بل على ما اشتمل عليه من جودة وامتياز •

الفصل الخامس

غاية التثقيف العربي الأمثل

تتمثّل الغائية الجوهرية الفذّة للتثقيف العربي الأمثل في « البعث العربي » ، بعث الإنسان العربي الحق ، ثم بعث الأمة العربية الحقة ، ثم بعث الكون الإنساني الحق ، بعثاً وجودياً جديداً يتحقق فيه الأفضل والأكمل والأمثل • وتشتمل هذا الغائية الفذة على خمسة أهداف إنشائية كبرى ، لابدّ للمتثقف العربي من بلوغها بشكل ما من أشكالها الكلية وفي صورة ما من صورها الرفيعة •

هذه الأهداف هي : التهذيب الإنساني ، والتأهيل الحياتي ، والتنوير الكوني ، والإبداع الفكري ، والإعداد الثوري •

التهذيب الإنساني :

الإنسان كائن آدميّ فذّ ، لا نظير له ولا فضيل بين جميع الكائنات . وقد خلقه الله ، منذ أن خلقه ، في خير هيئة وأحسن تقويم ، جاعلاً منه خليفته الأوحد على الأرض ، ومزوّداً إياه ، من أجل قيامه بخلافته هذه قياماً تكليفياً أميناً يكون في منتهى الكمال والتمام ، بمختلف القابليات والملكات والمواهب ، وبضروب الطاقات والقدرات والفاعليات ، الذاتية اللازمة ، الروحية منها والعقلية والنفسية والوجدانية والجسدية ؛ ولكن لا في حالها الموجبة من الظهور والفعل والتحقّق ، وإنما في حالها السالبة من الكمون والقوة والإمكان .

وتتمثّل خلافة الإنسان على الأرض في وجوب جعله إياها فردوسه الدنيوي الذي يحيا فيه آمناً وهانئاً وكريماً ، ومعبده الأخروي الذي يعرج منه إلى السماء مُطهّراً ومبرّأً وزكيّاً . وهو وجوب لا يصير ويكون إلا بأن يحقّق آدميّته الفذّة في صورتها المثلى ؛ وذلك عبر جهاد

أكبر وأصغر ، أو جوّاني وبرّاني ، دائم مستمر ، لاينتهي إلا بقيام الساعة .

من هذا المفهوم الحق للانسان ، ينطلق المثقف العربي في تثقيفه العربي الأمثل ليحقّق آدميّته الفذة ، متّخذاً في سبيل ذلك ، التهذيب الإنساني الشامل ، الذي يتناول شخصيته العامة بكل جوانبها وأبعادها ومستوياتها الحقيقية . ويقوم هذا التهذيب ، في مجمله ، على إطلاقه ، بحرية التزامية مسؤولة ، جميع قابلياته وملكاته ومواهبه وطاقاته وقدراته وفاعلياته من حالها السالبة ، حال الكمون والقوة والإمكان ، إلى حالها الموجبة ، حال الظهور والفعل والتجسّد ، مع تجميعها وتوحيدها وتشذيبها وتنظيمها وتركيزها وتوجيهها من ناحية ، ومع استعمالها واستخدامها بشكل حيوي فعّال في مختلف الميادين والمجالات الحياتية البنّاءة من ناحية ثانية ، ومع تنميتها وإغنائها بصورة تطورية خلاّقة من ناحية ثالثة ، بحيث تغدو هذه الشخصية شخصية إنسانية ممتازة ، حريّة بأن تؤدي خلافتها الأرضية على خير وجه .

لقد أُنسيَ الإنسان العربي أنه كائن آدمي فذّ، بل أنه خليفة ربّاني مُصطفى • فكان أن ضيّع آدميّته الفذّة وخلافته الربانية تضييعاً كلّياً ، مضيّعاً بذلك جوهره الإنساني الفرد ، وقيمته الذاتية الأصيلة ، ومقامه الوجوديّ الحقّ • وهو ، إذْ يهدف الى تحقيق تهذيبه التثقيفي ، فإنما ليستعيد هاتَيْن الآدمية والخلافة تامّتَيْن كاملتَيْن •

وبديهي أن يكون هذا الهدف التهذيبي أخطر الأهداف التثقيفية وأجلّها شأناً وأهمية ؛ وذلك لكونه الهدف الأوّلي الأساس ، الذي يتوقّف على إنجازه إنجاز غيره من الأهداف الأخرى ، إذْ بدونه تتعطّل كل هذه الأهداف بل تنعدم سلفاً •

التأهيل الحياتي :

ليس الإنسان كائناً فردياً صرفاً ، ولا كائناً جماعيا صرفاً أيضاً ، وإنما هو كائن فردي جماعي معاً وسواء بسواء ، بدون أن يكون هناك أيّ اختلاف أو تناقض بين فرديّته وجماعيّته • ففرديته داخلة دخولاً فطرياً في

جماعيته ومؤلّفة لها وجماعيته محتوية احتواء طبيعياً على فرديّته ومكوّنة إياها ؛ وبذلك فإن كلتيهما تتمّم الأخرى وتكمّلها وتتّسق معها ، وجوداً وحياة ، وصيرورة وكينونة، وقدراً ومصيراً •

وإذْ إن جماعية الإنسان تتجسَّد في أعلى مراحلها ومستوياتها في المجتمع القومي ، فإن الإنسان جماعياً هو مواطن قومي • وكذلك ، إذْ إن فرديته الإنسانية توجب عليه مسؤوليات والتزامات تهذيبية عامة تتيح له أن يكون إنساناً حقيقياً ، فإن جماعيته القومية توجب عليه بالمقابل مسؤوليات والتزامات خاصة تُعدّه لأن يكون مواطناً حقيقياً •

وعلى هذا ، فإنه ينبغي للمثقف العربي أن يكون إنساناً أولاً من خلال تهذيبه الإنساني ، ثم مواطناً ثانياً من خلال تأهيله الحياتي • ويتمثّل تأهيله الحياتي هذا في تسلّحه تسلّحاً ذاتياً بالوعي المجتمعي الحق ، النظري منه والعملي على السواء ، هذا الوعي الذي يجعله مؤهّلا

تأهيلاً مناسباً لأن يكون مواطناً مجتمعياً صالحاً ، أي لأن يكون إنساناً قادراً على أن يعيش عيشاً إنشائياً فعّالاً ، وأن يحيا حياة إيجابية بنّاءة ، إنْ أخذاً وإنْ عطاءً ؛ وذلك من خلال أدائه كل واجباته الرئيسية ، وتمتّعه بجميع حقوقه الأساسية ؛ هذه الواجبات والحقوق التي هي قوام كل وجود مجتمعي" مواطني" أمثل •

لقد حيل منذ زمن بعيد بين الإنسان العربي وبين أن يكون مواطناً عادياً ، بَلْه أن يكون مواطناً ممتازاً ، إنْ من حيث حصوله على أبسط حقوقه الأساسية وإنْ من حيث قيامه بأقل" واجباته الرئيسية ، وذلك لأسباب داخلية وخارجية وبفعل عوامل ذاتية وموضوعية ؛ وبذلك فقد شُل" حياتياً ووجودياً ، بحيث أُنسيَ تماماً أنه مواطن أي" مواطن ، ومن ثم بحيث أُنسيَ تماماً أنه إنسان أي" إنسان • وهو إذْ يمارس تثقيفه التأهيلي المنشود ، فإنما ليسترد" وعيه الكلّي الشامل العميق بمواطنيته القومية الحقة كاملة غير منقوصة •

التنوير الكوني :

إذا كان الإنسان كائناً آدمياً ينبغي تهذيبه تهذيباً إنسانياً رفيعاً ، أو كائناً قومياً يتوجّب تأهيله تأهيلاً حياتياً رفيعاً ، فإنه أيضاً كائن حضاري يلزم تنويره تنويراً كونياً شاملاً ؛ ذلك لأنه بغير هذه المتطلّبات الثلاثة ، مجتمعةً ومتحدةً ومتفاعلةً ومتّسقةً ، لا يمكنه أن يكون إنساناً محضاً ، كما خُلق أوّل مرة ، وكما هيّئ له أن يكون ، وكما قُدّر عليه أن يؤول إليه .

إن الإنسان ليس رهين ذاته فحسب ، ولا رهين هذا العالم وحده لا غير ، بل هو أيضاً رهين ذلك الكون اللامتناهي وما وراءه من عالم الغيب ؛ ذلك لأنه إذا كان، وجودياً ، نزيل الحياة الدنيا ، فإنه ، ماهوياً ، ربيب الحياة الآخرة . وعلى هذا ، فإنه مُكلّف ، بالضرورة والواجب، وضمن قدرته الإنسانية المعطاة ، بأن يكون على معرفة إيجابية كافية بذاته وكونه وغيبه جميعاً ؛ وذلك كيما يكون على إيمان خالص بخالقه ، وبصيرةٍ صادقة بحياته ووجوده،

وهدىً قويم بصيرورته وكينونته ، ويقين حق بقدره ومصيره .

ويتحقّق التنوير الكوني لدى المثقف العربي باحتواء هذا المثقف احتواء إيجابياً خلاّقاً على المعرفة الانسانية المثلى . وهي معرفة ينبغي له يستقطرها استقطاراً مُصفّىً ، يتوخّى منه الحصول على جواهرها المكنونة وأكناهها الخفية ، كما يتوخّى منه الوصول إلى آفاقها الشاسعة وأغوارها البعيدة ، حيث يبلغ منها في مطافه الأخير منزلة العرفان العظيم ، التي هي أروع منازلها وأسماها .

لقد انغمر الإنسان العربي في معرفة شكلية جوفاء كاذبة ، بات يَعْمَهُ في ظلمات أمّيّتها وجهالتها الفكريتَيْن زمناً طويلاً ، وبذلك فقد كان مفرغاً تماماً من أيّ لون من ألوان التنوير الكوني الحق . إنه لا يكاد يعرف من عالم الغيب ، ولا من الذات البشرية ، ولا من الحياة الدنيا ، ولا من الطبيعة والوجود ، ولا من الصيرورة والكينونة ،

ولا من القدر والمصير ، ولا من الخَلْق والموت ، ولا من البعث والنشور ، إلا القليل والبسيط ، والعَرَضي والسَّطحي ، والقريب والمباشر ، والضئيل والمحدود ، والغث والبائر ، مما لايُسمن أو يغني ، وبالتالي مما لا يُجدي أو يفيد .

إن المعرفة البشرية هي جوهر الحضارة الإنسانية. وإن السِّمة الفذة للإنسان الحضاري الحق هي سمة المعرفة ، المعرفة التنويرية الخالصة ؛ أي المعرفة الكلية الشاملة ، والعميقة الدقيقة ، والغنية الخصبة ، والصحيحة السليمة ، والصالحة الخيِّرة . والمتثقف العربي ، إذْ يمارس تثقيفه التنويري الأمثل ، فإنما ليحصل على مثل هذه المعرفة الكونية الرفيعة ، ومن ثم ليحقّق حضاريّته العربية الأصيلة ، حضارية الترقي والتقدُّم في مضماري الذات والوجود .

الإبداع الفكري :

ليس الإنسان كائناً آدمياً ينبغي تهذيبه تهذيباً إنسانياً قويماً ، ولا كائناً قومياً يتوجَّب تأهيله تأهيلاً

حياتياً رفيعاً ، ولا كائناً كونيا يلزم تنويره تنويراً معرفياً شاملاً ، وإنما هو إلى جانب كل أولئك كائن مبدع يقتضي تكوينه تكويناً إنشائياً خلاّقاً • وهذا يعني أن التثقيف لا يتمثّل في تحصيل الفكر الإنساني تحصيلاً عاماً يقوم على الفهم والإدراك والاستيعاب والتمثّل والتشبّع فحسب ، بل يتمثّل كذلك في إبداع هذا الفكر إبداعاً خاصاً يقوم على التأمّل والاستيحاء والإلهام والكشف والابتكار في صورها المختلفة • وإذا كان إبداع الفكر أمراً عمومياً يشمل كل متثقف بإطلاق ، فإن إبداعه في أشكاله الفنية العليا أمر خصوصي لا يشمل سوى المتثقف الكاتب وحده • ويتميّز تثقيف المتثقف الكاتب عن تثقيف المتثقف غير الكاتب في الدرجة لا في النوع ؛ فتثقيف الأول يكون بالضرورة والواجب أشدّ تركيزاً ومتانة وقوة ، كما يكون أكثر شمولاً وعمقاً وفعّالية من تثقيف الثاني ؛ ذلك أن مسؤوليته في إنتاج الفكر يلزمانه بالارتفاع بتثقيفه إلى أعلى المستويات ، وبالتالي يلزمانه ببذل جهود ذاتية أكبر وأعظم •

هذا الهدف الإبداعي الفكري للتثقيف ، يتحقّق على خير وجه في التثقيف العربي الأمثل ، وعن طريق الكاتب العربي الحق . فمن خلال هذا التثقيف يُصاغ هذا الكاتب صياغته الإبداعية اللازمة ، ومن ثم يُصاغ الفكر العربي والثقافة العربية صياغتهما المستقبلية المنشودة . لقد كان التثقيف الذي مارسه المثقف العربي قبل الآن تثقيفاً هجيناً ، لذا فإنه لم يصنع سوى كاتب هجين ، وبالتالي لم يصنع سوى فكر وثقافة هجينَيْن . أما التثقيف العربي الأمثل ، فإنه تثقيف أصيل ، لذا فإنه لن يصوغ سوى كاتب أصيل ، وبالتالي لن يصوغ سوى فكر وثقافة أصيلَيْن . ذلك أن الهجانة لا تنتج إلا الهجانة ، وأن الأصالة بدورها لا تنتج إلا الأصالة .

أجل ، إن التثقيف العربي الأمثل ليس من غائيته أن يُخرّج فقط مثقفين ممتازين ، قادرين على تحقيق آدميّتهم ومواطنيّتهم وكونيّتهم الحقيقية ، بل أن يُخرّج كذلك كتّاباً مبدعين ، قادرين على خَلْق ثقافتهم القومية

الإنسانية العالمية الأصيلة . وهي ثقافة ستمسي الغذاء الأصلي للأجيال العربية الصاعدة ، كما ستمسي البواكير الأولى للتراث الثقافي العربي الجديد ، تراث البعث والنشور .

الإعداد الثوري :

إن الأهداف التثقيفية آنفة الذكر ، وهي التهذيب الإنساني ، والتأهيل الحياتي ، والتنوير الكوني ، والإبداع الفكري ، ليست سوى الوجه العمومي للتثقيف العربي الأمثل ، الذي لا يكتمل ويتمّ إلا بوجهه الخصوصي ، وهو الإعداد الثوري . ذلك أن الغائية الجوهرية الأساس لهذا التثقيف هي بعث الإنسان العربي الحق ؛ وهو بعث لايصير ويكون إلا من خلال الثورية العربية المذهبية الكبرى ؛ هذه الثورية التي ينبغي أن تتجسّد كاملة في المثقف العربي .

وهكذا ، فإذا كان هدف التثقيف التهذيبي هو أن يصوغ من المثقف العربي إنساناً تامّ الإنسانية ، وكان

هدف التثقيف التأهيلي هو أن يصوغ منه مواطناً رفيع المواطنية ، وكان هدف التثقيف التنويري هو أن يصوغ منه مثقفاً ممتاز المعرفة ، وكان هدف التثقيف الإبداعي هو أن يصوغ منه كاتباً أصيل الفكر ، فإن هدف التثقيف الثوري هو أن يصوغ منه مجاهداً فذّ النضال . الأمر الذي يعني أن هذا التثقيف الثوري هو التتويج الخاص للتثقيف العربي العام .

ويتمثّل الإعداد الثوري للتثقيف العربي الأمثل في تزويد المتثقف العربي بخلاصة مكثّفة ومركزة ، ودقيقة وعميقة ، وكلّية وشاملة ، عن الفكر الثوري الحق ، العربي منه والعالمي ، والقديم والحديث ، على السواء . وذلك ضمن برنامج تثقيفي خاص ، سداته الإيمان المطلق واليقين المحض والثقة الخالصة بالثورية ، ولحمته التشبّع التام بها ، مقولات ومنطلقات ، ومبادىء وقيماً ، وقواعد وتعاليم ، وأساليب ووسائل ، ومسارات وأطواراً ، وأحداثاً وسِيَراً ، بحيث تغدو هذه الثورية البوتقة الكبرى

التي تنصـــهر فيها ذاتية هـــذا المثقف العـــربي انصهارها التهذيبي التأهيلي التنويري الإبداعي الصرف •

لقد فات الإنسان العربي الحديث أن الجهاد الثوري ، الجوّاني منــه والبرّاني أوالأكبر والأصغر ، هو مقوّم جوهري أعظم من مقوّمات ذاته وحياته ووجوده ، وأنه لا غنى له عنه في بلوغه مبلغ الكمالَيْن الدنيوي والأخروي معاً ؛ فكان أن أمسى رهين عبودية كلية شاملة ، وبالتالي رهين عطالة عدمية سالبة • وهو إذْ يتثقــف الان بثقافة ثورية حقة ، فإنما ليطلق ثوريته من مكمنها العميق ؛ ومن ثم ليدفع بها ، إيجابيةً خلاّقةً ، نحــو أقصـــى الأمداء والآماد في ذاته وحياته ووجوده •

* * *

إن تحقيق المثقف العربي لغائيته الجوهرية العامة ، بأهدافها الانشائية الخمسة الكبرى ، التهذيب الإنساني ، والتأهيل الحياتي ، والتنوير الكوني ، والإبداع الفكري،

والإعداد الثوري ، يعني تحقيقه المنشود لبعثه كإنسان عربي حق ، ومن ثم يعني تحقيقه المنشود لبعث أمته كأمة عربية حقة ، وأخيراً يعني تحقيقه المنشود لبعث كونه ككون إنساني حق . ذلك أن بعث الأمم إنما يبدأ ببعث أفرادها الطليعيين الأفذاذ ، كما أن بعث الكون إنما يبدأ ببعث أممه الحضارية الرائدة .

خاتمة

لقد قدّر على الإنسان العربي ، في عصره الحاضر هذا ، أن يكون هو ذاته إنسان البعث ؛ أيْ أن يكون هو ذاته الإنسان المكلَّف بأن يحمل مسؤولية بعث أمته العربية بعثاً قومياً إنسانياً ، وعالمياً كونيا ، ورساليا حضاريا، أعظم • وكونه كذلك ، فإنه يتوجَّب عليه ، باديء ذي بدء ، أن يؤمن بذلك إيماناً مطلقاً ؛ ثم أن ينشيء من بعد ذاك ذاتيَّته الكلِّية إنشاءً فكرياً عقيدياً ثورياً فذّاً ، يؤهّله لأن يحمل هذه المسؤولية الوجوبية الضخمة على أتمّ وأكمل ما يكون • وهو إنشاء لن يكون إلا من خلال تثقيف عربي حقّ أصيل ، هو التثقيف العربي الأمثل •

وهكذا ، فبالتثقيف العربي الأمثل يكون إنسان البعث الأمثل ، وبإنسان البعث الأمثل يكون بعث الأمة العربية الأمثل ، وببعث الأمة العربية الأمثل يكون بعث الكون الإنساني الأمثل . وإنه لتثقيف لابدّ من أن يصير ، وإنه لتثقيف لابدّ من أن يصير ، وإنه لإنسان لا مناص من أن يوجد ، وإنه لبعث لا مندوحة من أن يتحقّق ؛ ولن يكون ذلك آجلاً وفي المدى البعيد ، بل عاجلاً وفي المدى القريب .

تم الكتاب

الفهـــرس

كتب للمؤلف

كتاب العرب القومي	دمشق ١٩٧٧
في الشعوبية	دمشق ١٩٧٩
مقالة في العروبة والاسلام	دمشق ١٩٨٠

توزيع
دار الفكر
دمشق - ص٠ب : ٩٦٢